نساء المحروسة

رواية

تأليف: نادية توفيق

إهداء

إلى صغيرتي المبدعة التي علمتني صلابة الأمومة.

قارئي العزيز

أشكرك قارئي العزيز على التقاط كتابي هذا ومنحه بعده الثالث.

كتبت هذه الرواية على مدى شهور وقادني الإلهام من خلالها إلى زيارات تاريخية قصيرة في آلة زمن أدبية، وجدت طريقها إلى الرواية في مشاهد قصيرة من فصول من تاريخ مصر. إنها طريقتي في إظهار الامتنان لكل امرأة مهدت الطريق لنا. وأتمنى أن تُتَح لي فرصة تخصيص أعمال بعينها لتلك الفصول. وقد بدأت بالفعل في خط أفكار وكتابات أولى عن فترات من تاريخنا الحديث.

كان لي الشرف أن تفوز روايتي هذه "نساء المحروسة" بالمركز الثاني مناصفة في مسابقة ببلومانيا للرواية العربية لعام 2020، وأن تكون أختا صغرى لأعمال جميلة تثري المحتوى الروائي العربي.
مع كامل الاعتزاز والتقدير.

نادية توفيق
18 نوفمبر 2020

Website: http://www.nadiatawfikbooks.com/
Email: nadiatawfikbooks@gmail.com
FB: @nadiatawfikbooks
Twitter: @BooksNTawfik
Tumble: @nadiatawfikbooks

Copyrights

Copyright © 2020 by Bibliomania & Lotus Books

All rights reserved. This book or any portion thereof may not be reproduced or used in any manner whatsoever without the express written permission of the publisher except for the use of brief quotations in a book review.

First Edition, 2020

Lotus Books

لا يجوز إعادة طبع هذا الكتاب أو أي جزء منه إلا بإذن صريح ومكتوب من الناشر.

كل حقوق التأليف والطبع والتوزيع محفوظة لبيبلومانيا ولوتس للنشر.

صدر للمؤلفة أيضا المجموعة القصصية "أجنحة متكسرة" عام 2019 وهي متوفرة ككتاب ورقي وعلى كافة منصات الكتب الإلكترونية.

Table of content

إهداء
قارئي العزيز
Copyrights
شرم الشيخ (العَلَم)
القاهرة (حُب)
ورقة وداد رقم واحد
القاهرة (حارة)
ورقة وداد رقم اثنان
القاهرة (حريق)
ورقة وداد رقم ثلاثة
القاهرة (حَزْ)
ورقة وداد رقم أربعة
القاهرة (حَلْ)
ورقة وداد رقم خمسة
القاهرة (حماة)
ورقة وداد رقم ستة
القاهرة (حَرام)
ورقة وداد رقم سبعة
القاهرة (حَرَمْ)
الإسكندرية (بيتش)
هيباتيا... ورقة الحكمة
الإسكندرية (عِطْر)
هيباتيا – ورقة الجمال
الإسكندرية (قُفَّاز)
هيباتيا – ورقة الشفاء
الإسكندرية (غَرَق)
مديحة – مسك الختام 1
الإسكندرية (مِلح)
مديحة – مسك الختام 2
الإسكندرية (شوكولاتة)
مديحة – مسك الختام 3
الإسكندرية (سعادة)

شرم الشيخ (العَلَم)

لم يكن أمامي سوى الانتظار. الصبر هو مفتاح كل شيء إلا الفرج فيما يبدو. حكمة القدماء ما تفتأ تأتي إلينا معتقة هشة، نحافظ عليها، نهدهدها بين جنباتنا ولا نلقي بها أبدا إلى الكلاب في الطرقات. زوجي ينبش حولي ويزعج كالعادة. صوته الحاد العالي يعطيني إحساسا بأنني محمية من أخطار هلامية تحاصرني لكنه لا يترك لي سلاما.

والآن ونحن في الطريق، بدأ يشاور عقله مرة أخرى في أن يفسد علي رحلتي المختصرة البسيطة. قائمة الطلبات، ترمس القهوة، علبة السجائر، قلم الروج، البلاكبيري، الديجيتال فريم الذي يحوي وجوه طفلي المتعددة. براءتي المسفوكة والبحث. أقلبه على اللاب توب. لكن زوجي ما زال يتحدث بصوت عال. ثم يلتفت نحوي بملحوظة غير بريئة "أتعبتنا وفي النهاية لن ينشروا لك شيئا" من يبالي أصلا؟ حاولت التدثر بكلمات بحثي العزيزة. أعدت قراءة الملخص. هناك شيء ما غير متناسق. شيء ما مفقود. سيناء. نعم كلمة السر. ماذا أفعل أنا والرحلة والترحال ومن كتبوا عنها في سيناء. إلى أين نحن ذاهبون؟ إلى أرض الفيروز؟

صوت شادية يصدح بأغنية وطنية. نغلق التلفزيون ونجري إلى حديقتنا الصغيرة. أسأل أبي عن أهمية رفع العلم على طابا. يشرح لي مطولا تاريخ استرداد سيناء. وماذا نفعل بصحراء قاحلة؟ يؤكد لي أبي أنها جميلة. ولا أفهم كثيرا كيف تكون جميلة.

زوجي يرفع صوته أكثر وهو يحادث زميل عمل. يشتم بلا ابتذال. لديه القدرة على السحق دون دم. إرث أرستقراطي لا أدري عنه الكثير. أخفي عيني وراء نظاراتي الكبيرة وأحاول التركيز. سيناء، نعم، لم لا. سنجد لها أثرا في كل الكتابات. لا يهم التطابق أو التناظر. لقد وافق د. أحمد على البحث، حتى وإن كان الأدب هامشيا في مؤتمر يطأه التاريخ وعلم الآثار بثقل، فلابد وأن يُسرّي عن الموجودين، كثيرون يتوقعون منا أن نكون حكائين ونملأ خيالهم بكل ما لذ وطاب.

اقتربنا من الإسماعيلية، يذكر زوجي قريبه صاحب حدائق المانجو هنا. يقول إنه مليونير لم يتخل عن الجلابية أبدا. يدفعني في فخذي بحثا عن شيء في السيارة. لمسته تضايقني. أتذكر ليلة أمس. كان سريعا متعجلا، وباردا. أتمنى أن تغسل مياه البحر الأحمر فتورة أحاسيسي. لم أعد أرى نفسي جيدا. وكأنني قصير نظر يرقب نقطة بعيدة في الفضاء ويحاول استجلاء ملامحها. وحدي في الصحراء. أقترب من الصحراء. تبتعد الإسماعيلية ونقترب من نقاط حدود أخرى. نعبر نقطة تلو الأخرى. رجل محترم وحرمه، ما يمكن أن يمثلاه من ضرر؟ وجوه العساكر منهكة من جهد غامض أو ربما داء يفتك بأجسادهم. من يعبأ؟ "سينا رجعت كاملة لينا ومصر اليوم في عيد" تطن الأغنية في أذني كأنها وعد لا يجب أن أنساه. ولم أنسى؟ كنا نلعب معا أنا وهو بعيدا عن أعين الجيران في ركن نعرفه جيدا. كان يقترب مني محاولا أن يتعانق ظلانا على الأشجار. كانت فرحة فاترة يوم عودة طابا. الناس عايزة تاخد بالثأر. ممن؟

زوجي يقول نكتة، أتظاهر بالابتسام وأحاول إخراج صوت يشبه الضحك. أطلب منه الاتصال بالأولاد. يتلكأ ثم يضغط رقم أمه. أخاف على ابنتي. فهي أذكى من أن يخدعها أحد بحب زائف. ما باليد حيلة. أمه ترد في عبارات سريعة، أسمع رنة صوتها من الموبايل. ألتهف على سماع صوت ابنتي. يأتي صوتها فاترا. أما الولد فصوته ضاحك باش. لا يعبأ مثل الكثيرين، إلا أنه قارئ جيد. لن يحطم أحد قلبه. الابنة ذكية لكنها مغتربة في أفكارها. تتحدث أحيانا بطريقة لا أفهمها. لها كود لغوي خاص بها. زوجي لا يفكر، زوجي يفعل. ينظر نحوي، يحاول خلع نظارتي بحجة أن الشمس غربت، أرفض.

لم تكن شرم الشيخ يوما مقدرا لها أن تصل إلى ما وصلت إليه. لقد صارت رخيصة ومختلفة. راندا متحمسة جدا للقضايا الخاسرة. لا تغطي شعرها ولا تضع مساحيق وتذهب إلى الأوبرا أو المسرح كل ويك اند. لم نكن صديقتين بالمعنى الذي يمكن أن تستوعبه حماتي أو جارتي، وإنما كنا صديقتين بالمعنى الخاص بنا. رأتني منذ أسابيع في رواق القسم بالإيشارب ورأيت نظرة حسرة في عينيها. قلت لها "أصبحت مثل كل الناس". هزت كتفيها ورددت "ليه؟"

شرم الشيخ قطعة من صحراء سيناء، كان يجب الحفاظ على طوبوجرافيتها واحترامها، لا تشويهها بهذا الشكل. لقد قسمت إلى قطع صغيرة واستولى كل تايكون على قطعة، ثم فُتت القطع الصغيرة إلى قطع أصغر وبيعت بالكيلو. هل رأيتها من قبل؟ كثيرا في رحلات نصف العام بربع الثمن أو حتى بعشر الثمن الحقيقي يمكنك أن تستأجر غرفة على خليج نعمة وتستمتع بالفرجة على البيكيني وتنطلق تاركا الأولاد والمدام على البحر أو في السوق. ما رأيك في استئجار سكوتر والصعود إلى الجبل؟ السهرة البدوية مكررة ومملة، في شرم الشيخ يحرم عدم التمتع ببني الأصفر، سهولة الحصول على متعة والخروج عن الناموس العائلي هو ما يجعل شرم الشيخ محطة إجازات مفضلة. لا يمكن أن تقابل هذا النوع من الرجال في المؤتمرات.

استقبلنا د. أحمد هاشا باشا كعادته، كلماته الدبلوماسية هدهدت مخاوفي بشأن نشر البحث. استطاع زوجي ببراعة اكتشاف عشرة عيوب على الأقل في غرفتنا في أقل من خمس ثوان. ما زال صوته عاليا. اتصل بالرسبشن وطلب تغيير الفوط لأن إحداها بها بقعة وروم سيرفس نبيذ ومكسرات وجبن بعد ساعة. لا أحب رائحة النبيذ ويجب أن أخرج للعشاء ومقابلة الزملاء.

خرجت وحدي. الليل بارد. وقفت أنتظر الطفطف. أصوات بشرية تأتي من فوقي ومن تحتي. العالم يدور ولا نشعر به. أوراقي يداعبها الهواء. كيف أصل ما أنقطع مع سيناء؟ سائق الطفطف شاب لطيف من المحلة. عرف على الفور من هيئتي الرسمية أنني مع المؤتمر. تساءلت كم يبدو علي من العمر؟ يوم سبوع ابني كنت مشرقة وجميلة. استدعيت إيمان، الماشطة باللغة القديمة، قبل السبوع بأيام وعملت لي عمرة خرجت منها كالعروس. كانت بطني كبيرة بعض الشيء، لكن أختي ببراعتها اختارت لي طقما أزرق لامعا ببنطلون فضفاض يخفي العيب الذي ظهر. كنت متعبة لكن سعيدة. صبغت شعري بلون أقرب إلى الأشقر النحاسي. وأبقيت على بعض الخصلات الغامقة هنا وهناك. عدت شابة من جديد. ابني كان جميلا هو أيضا، بعد الطهور. لم أقاوم كثيرا، لكن الطبيب أكد لي أن ذلك أفضل وهو صغير كي لا يدري شيئا. شعرت أننا نتآمر ضده، لم لا نترك له الخيار؟ ويعيش نجسا؟ صحيح. كيف أفكر؟ أحيانا يتلاعب الشيطان بأفكارنا. يوم سبوعه كانت ابنتي عابسة. لم تكن قد بلغت الثالثة، إلا أنها كانت تعرف أن حياتها تغيرت مرة وإلى الأبد مع مقدم هذا الصغير من المجهول. زوجي كان نافشا ريشه. وسامته كانت واضحة جلية بل ووقحة. لم أكن أحب الدخول معه في سباق الجمال لأنه كان يكسب دائما بدون مجهود. يكفي أن يستيقظ ويدخل الحمام وبعد ربع ساعة يكون مورد الوجه حليقا تفوح منه رائحة رجولية جذابة. أما أنا. فأدخل متاهة من الألم والقلق والتعب والسهر ولا أفوز. كم من المال أهدر على شعري وملابسي وجسدي؟ بعد ارتدائي الإيشارب صارت الأمور أكثر صعوبة. الآن أرى تلك النظرة في عينيه. النظرة التي طالما حدثتني عنها الأخريات.

في قاعة الطعام اكتشفت أنني نسيت بطاقة الأكل. لو كان زوجي معي لكان تذكرها. فهو دقيق. اعتذرت وتناولت الصحن وأنا أشعر بالحماقة. طعام إيطالي، مصري. التقيت بإلين، ابتسمت لي في برود وتعال. ووجدت من تحتضنني من الخلف. نجوى. أخيرا جاء العيد.

ماذا سنفعل؟ زمان كنا نتبرع بأموالنا للمجهود الحربي، كانت عندنا قضية نلتف حولها، أما اليوم... هل يجب أن تهدر الدماء في الحروب حتى نكون شعبا موحدا متعاونا؟ كانت أمي تحتفظ بألبوم يحوي ذكريات الستينات أيام شبابها. كان العالم مختلفا. لقد كانت سيناء في حضن الوطن الأم قرونا، فماذا فعلتم لها؟ أدرتم ظهوركم لها. اعتبرتموها بوابة ليس إلا. لم تحفلوا بها. بل هي ملتقى الديانات. ما معنى ذلك؟ أين التقوا؟ في المشروع السري للمعبد الثلاثي الذي يأنف الجميع من ذكره؟ أنت متمردة يا راندا. أنا أحب بلدي، أعشقها. أما نجوى فكانت دائما مبتسمة يأكلها القلق من أن يعملها زوجها. دائما ما تقول إن كل الأزواج يعملونها والبعض يستمر سنوات والزوجة آخر من يعلم. كنت أضحك لاهية. أتخيل زوجي مع أخرى. يصيبني بعض القلق، إنما أعرف زوجي حق المعرفة. أعرف أنه يمكن أن يمارس الجنس على قارعة الطريق لكنه لن يعطي نفسه لأخرى أبدا. أنا الأولى والأخيرة. هو أذكى من أن يقع في الشرك. ابنتي تقول في هذا الموضوع كلاما شاذا، لا أحب مناقشتها. تنظر إلي في حدة وتقول لي "أنت تسمعين الآذان ولا تجرين إلى الصلاة." أحاول التلطف معها، أحاول جذبها إلى طرق اللهو واللعب. تنظر إلي نظرة حديدية ولا ترد. زوجي مبسوط. نجوى تتكلم كثيرا. حنونة ومعطاءة، لا تبخل على أحد بشيء. تذكر دكتور أحمد بوعده لها. تقول له إن "عبد المتعال ايدك منه والأرض." تبتسم مارينا. تعلق نجوى هامسة "الأروبة بتعرف عربي كويس جدا." طبعا أكثر من عشر سنوات. وهي الصديقة الرسمية لدكتور أحمد كي لا نضيف شيئا آخر. هايدي المترجمة تدور حولها كالنحلة. يرطنان معا بالإيطالية بعض الوقت. دكتور أحمد يعلق على الطعام ويضع شيئا في طبق مارينا. أمضغ الأكل على مهل. المكرونة جميلة وسلطة الحمص تذكرني بالأمسيات التي كنا نقضيها عند تنت عظيمة. كانت امرأة طيبة القلب، قلبها بحجم جسمها. وحكاياتها التي لا تنتهي. كل شيء كان يبدأ جميلا وينتهي جميلا. كانت تشتري الحلوى والفاكهة يوم زيارتنا. يتركنا أبي عندها مع أمي ويأتي لتوصيلنا آخر النهار. تنت عظيمة كانت وطنية تحب كل رؤساء مصر وحتى الملك فاروق. كانت عندها نظرة وسطية لكل شيء. تطلب مني أن أتعلم لأن العلم سلاح. تقول لي لا تعتمدي على جمالك. ولكني لست جميلة يا تنت عظيمة. تسألني نجوى عن نوع البارفان الذي أضعه. أنا لا أغير العطر. تضحك وتعلق بشيء على وجود زوجي معي. عندما أعود سيكون قد تجرع زجاجة النبيذ ويا عالم! أريد أن أبقى في كامل لياقتي من أجل الغد. هايدي سألتني إن كنت أرغب في شيء خاص بالسشن بتاعتي. أبتسم في تحفظ. ما زلت غير واثقة من بحثي. أتكلم عنه مع دكتور أحمد، يتدخل أحدهم في الحوار يحضر طبقا ويجلس بجواري، وقبل أن أتلمس طريقي إلى وجهه يكون قد مد يدا بالتعارف. لم أتمكن من النظر إليه مليا لكنني شعرت بشيء يمنعني من أن أبتلع الطعام. كان يتكلم ويتكلم. في الحديقة كنا نلعب ما بين العصر والمغرب حتى عودة أبي. كانت أيام الصيف حلوة رخية بين ظلال الأشجار الوارفة. لم يكونوا قد قطعوها بعد. يقول دكتور أحمد سيناء أثارت فضول الإغريق عندما قدموا إلى مصر. كانت لهم بمثابة كنز يحوي على أسرار كثيرة. تحدث جاري عن الأديرة والرهبان. كان متحمسا. بحثت عن وشم الصليب على ذراعه فلم أجده. أخطأ ظني.

نجوى لا تفتأ تهمس في أذني. "دكتور طارق لسة جاي من أمريكا." كان يحرك يديه سريعا ويرسم صورا في الهواء، كنت أرى الألوان. مارينا أشارت إلى هايدي، فأسرعت الأخيرة بالشال إليها. ساعدها دكتور أحمد على النهوض، كانا

معتادين على أن يضع يده على كتفها أو يهمس في أذنيها أو يقبلها على وجنتها مرحبا. وصار الأمر مقبولا أو فلنقل إننا في شرم الشيخ حيث كل الأشياء مباحة. انصرفا معا وهمست لي نجوى مرة أخرى. استرعيت انتباه طارق، فاصطادني في شبكة من الأسئلة المتلاحقة. كنت أفكر في زوجي.

تكلمت مع ابنتي لآخر مرة قبل أن أهجع إلى السرير. كانت حادة كالعادة. بحثت عن مبرر لإطالة الحديث. أعلنت السلام عليكم وأغلقت الخط بغلظة. نظرت إلى زوجي مستنجدة. كانت عيناه حمراوين. فتح قناة خليعة، تركته وحبست نفسي في الحمام.

شرم الشيخ تطل على البحر الأحمر، بل تقع عند رأسه. إذا كنت تحب الحياة تعال إلى شرم الشيخ. لدينا الشواطئ الخلابة، لدينا المحميات الطبيعية، لدينا الخلجان النادرة. تعال إلى شرم الشيخ ولن تندم. ستجد الشمس والخضرة والوجه الحسن. سنسعد بك وستسعد بنا. تعال إلى شرم الشيخ. لدينا الجنس الوهمي والجنس الرخيص. لدينا خيار وفاقوس، كما أن لدينا عمالة الفنادق التي هي أقرب إلى سوق النخاسة. بعنا شرم الشيخ لأهالي مصر وتركنا الباقين معزولين في قراهم الفقيرة. لا يقربوا من المدينة "النظيفة". مدينة السلام بكل تأكيد رغم أنف الحاقدين والموتورين والمغرر بهم. رفع العلم على طابا. "اليوم نحتفل بذكرى رفع العلم المصري على طابا. كلمة من مديرة المدرسة." "تحتفل مصر في التاسع عشر من مارس في كل عام بعودة قطعة غالية إلى أرض الوطن هي آخر قطعة مفقودة..." من البازل. واكتمل الجيج سو بازل. شاطرة. كانت ابنتي تحب البازل منذ صغرها. وكانت تطلب مني شراء البازل الأكثر صعوبة. لم تكن تعبأ بالدمى. لم تكن تحب الموسيقى. كانت في العاشرة عندما قررت أن تتوقف عن لعب الجمباز وفي الثانية عشر تحجبت. شجعها أبوها على هذا. اعتبر أن هذا سلام في العائلة. لن يقلق على عذريتها أبدا. هكذا قال لي عندما طلبت منه أن يتدخل. كنت أخاف من الدخول معها في نقاش. تحت زجاج مكتبها عبارات تذكرة بعذاب القبر واليوم الآخر. تنظر إلى الأمام في ثقة وتحد. تضع حاجزا غير مرئي بين عالمها وعالم أبيها وأخيها وعالمي. حماتي تستاء منها كثيرا لكنها كانت تضرب بها المثل في الورع والتقوى. الألم في قلبي. كأنهم يعزونني فيها. لم أر فيها شيئا من وطني. ألست مؤمنة ومتدينة؟ حد طايل؟ أنت في نعمة. ألا ترين البنات في الشارع بالبودي المحزق والبنطلون الضيق وكل جسمهم مفسر؟ ماذا أريد؟ عم أبحث؟

كتبت بحثا للدكتور شهدي لم يعجبه لأنني اخترت بوريس فيان. "يعني ما لقتيش غيره؟" ما معيارك يا دكتور شهدي؟ هل نضع الكتاب على الميزان؟ لم أتكلم كالعادة. كنت مخطوبة وأريد أن يمر العام بسلام حتى أتزوج في الصيف. في الصيف لازم نحب. نور الشريف وعادل إمام. ابتسامات نادرة. بحر وقبلات وأجساد طرية. كان زوجي يأخذني أيام الخطوبة إلى بارات شيك في الزمالك والدقي. كنت أشعر بالفخر وأنا أسير بجواره. بالانتصار ربما. أنا لك على طول خليك ليا. راندا تحب عبد الحليم. صوت مصري. يا راندا أفيقي من أوهامك المثالية دي الدنيا تغيرت. كنا في جروبي القديم. لم يعد هناك شيء من الماضي سوى الجدران البالية. انظري حولك إنهم يبيعون العمارات القديمة كي تحل محلها الأبراج. بعد عشرين سنة ستصبح القاهرة غابة من الأبراج.

بدأ اليوم التالي بداية موفقة. الكل متلمع وجاهز للعرض. دعوت الله أن لا يخذلني شيء. وتذكرت انتقاد ابنتي أنني أحرص على الصلاة وقت الزنقة. أنا ضعيفة يا رب اغفر لي. تعرفت على كاميليا على مائدة الإفطار. من الصعيد. سيدة رقيقة صوتها منخفض على وجهها آثار حياة هادئة بلا مفاجآت. نجوى ترتدي جاكت شيك على بنطلون

أصفر ضيق بعض الشيء. تسألني عن رأيي في مظهرها. أنت دائما تذكرينني بمذيعات القناة الأولى. لا تقلقي. "نفسي أروح لبنان أو الإمارات. هعمل عمايل. على فكرة أنا عملت ليزر ولسة في انتظار النتيجة." أنظر في أوراقي وأحسب الوقت المتبقي. أنا رقم ثلاثة. زوجي لم يحضر كالعادة. الحاضر الغائب. تسألني نجوى فأهز كتفي. شرم الشيخ وراءنا. لم نر إلا أطراف الشاطئ الذي تلتف القرية حوله على شكل شبه دائرة. من له حق شراء الطبيعة؟ المافيا؟ هاها نكتة حلوة لا أحد يصدق أن صاحب القرية هو عضو في العائلة. إشاعات ما أنت عارفة المصريين غاويين ترويج إشاعات.

زوجي خرج إلى الغطس. أنا متأكدة أنه سيخطف له متعة عابرة في طريق عودته إلى العرين. هل أتألم؟ هل أغار؟ ألم يدربوننا على ألا نفعل؟ لماذا يلوموننا إن فعلها أزواجنا؟ هل سنذهب إلى الجنة معا؟ كيف وهو يعاقر الخمر؟ ابنتي؟ هل ستفتح لي باب الجنة بدعوتها لي عن ظهر الغيب؟ ابني عقله عبارة عن اكس بوكس وأفكار. يمررها من بوابة ضيقة. يعيش حياته برحابة صدر. له فلسفة غريبة على طفل في الثانية عشر. الآن لا تخرج بدون قفاز. وجهها يزرق أحيانا أو يخضر. أحاول الكلام معها ببساطة. أقدم لها كتابا. أجده في اليوم التالي على البوفيه لم يمس. يلتقطه ابني ويقرأه في يوم أو يومين. يقرأ سريعا.

مر كل شيء على ما يرام. تجاهلتني هايدي، لكن الباور بوينت اشتغل. وبدأت محاضرتي. كانت كاميرا نجوى تنظر إلي في حنو. زيارات تنت عظيمة من أحلى ذكريات طفولتي. كانت تعيش وحدها بعد وفاة زوجها. كانت ابنة خالة لجدتي من أمي. وكنا نتحلق حولها مثل القطط الصغيرة نتلقف كلماتها بشهية. تحضر الصينية الكبيرة ليلة العيد وننقش معها الكحك ونضحك.

التراب الغالي. لن نفرط في شبر واحد من سيناء. معركة الكرامة. كان عرضي لملخص البحث ناجحا أو هذا ما بدا لي. استمعوا إلي وأنا أتكلم بإنجليزية سليمة. رأيت مارينا تهز رأسها موافقة عدة مرات. دكتور أحمد يميل نحوها دائما. هايدي واقفة ديدبان. القاعة صامتة.

كنت في حلم. كان زوجي يجري بسرعة ويخطفني كأنه نسر قوي ونمارس الحب في الهواء. انتشيت من الحلم. من هم الرحالة الذين خطت أرجلهم أرض سيناء وماذا تركوا فيها؟ ماذا جلبوا لها؟ من نحن اليوم؟ لحظة انتصار. هذه أرضنا أخذوها بالقوة وتركونا نموت في التلال الجافة. الاحتلال الغاشم طبعا. هل تفهم أنني مغتصبة أرضي؟ هل تفهم؟ الرحالة أتوا إلى هنا ومنهم من ظل بالتيه طيلة حياته. هنا صحراء الحياة لا الموت.

أقدم لكم زوجي. عبارة كررتها كثيرا حتى مللتها. سرق مني الأضواء في المساء. عثرت على طارق. كان مختفيا. لمحت رأسه في الصباح ربما. سألني "أنت شايفة في البداوة أسلوب حياة مثالي؟" با له من سؤال في تلك القاعة الفخمة. تجنبت نظرته التي تشبه نظرة عمر الشريف في صراع في الوادي عندما كان يتهم ابنة الباشا بالوشاية به. بحثت عن زوجي، وجدته ارتمى في أحضان الأجانب. شعرت بالخيانة. عدت إلى بحثي. تذكرت راندا. رفضت حضور المؤتمر لأنه تمثيل في تمثيل. حان الوقت لتترقي. "سأعود إلى أمريكا قريبا." كنت أخاف عليها بسبب عدم حذرها.

نجوى طلبت من طارق "والنبي بلاش وجع دماغ عايزين نروق. السشنز خلصت. تعرف تنظم لنا رحلة حلوة ومعقولة كدة في اليوم الختامي؟" تمتم بكلمات بلغة غير مفهومة. ابتسم ومازحها. تلون فجأة بعد أن كان رماديا. الآن تذكرت. "أنت كنت في لجنة اختيار البعثات من كام سنة ورفضت طلبي."

ابتسم في ثقة وقال "أخيرا افتكرتي!"

كنت حامل في الشهر الرابع. الحمل يجعلك مثل دمية خشبية خرقاء. وكأنك مثقوبة هنا وهناك. لماذا تريدين السفر؟ ابنتي تسألني لم أتركها. كنت حيرى. زوجي لا يساعد. لا يتقدم. لا يتأخر. عنده حساب كبير في البنك مجازا.

عنده حساب في كل البنوك المصرية والأجنبية. لا يعرف عدد الكروت البنكية في محفظته. اشترى لي طاقما من الأحجار الكريمة كي أحضر به زفاف ابنة عمي. زوجي كريم. نظرات طارق. نار وبارود. كانوا يختبئون هنا ويقومون بعمليات ضد الإسرائيليين. تحمس أحد الزوار وطالب بمنع السياح الإسرائيليين من دخول سيناء. ما هي سيناء؟ شوية رمل؟ قالت إحداهن انظروا ماذا فعلنا بأرضنا، لقد كانت أفضل حالا وهي تحت الاحتلال. كيف يجرؤ على لمس كتفي؟ أنا متزوجة. أنت حنبلية كالعادة. مفيش حاجة اسمها زنا لو كان الطرفان غير مرتبطين. لكن أنا زوجة. إذن هذا زنا. هل تعرفين ما هو شعور من تعلق من شعرها في النار؟ ليس لدقيقة ولا لساعة بل لألف خريف. وأتعلمين ما هي السنة في حساب الله؟ لا يمكن أن تتخيلي. كان شريطا طويلا. جلست أمامه واجمة. لم أتمكن من الضغط على ستوب. كانت ابنتي تجلس غير بعيد. تنظر إلى الشاشة باستمتاع. كانت تحب شرائط الداعيات وتتبادلها مع صديقاتها. صديقاتها؟ لم يدخلن بيتنا قط. عالم ابنتي خارج زماننا.

في القاعة الفخمة وقف زوجي مزهوا لسبب ما لا أدريه. كأنه فخور بوجوده معي. التزمت مكاني قربه. حاولت تقصير المسافات. نجوى تضحك مع طارق. وكاميليا تأكل من طبق حلوى ودكتور أحمد يتحدث في الكورة مع مجموعة من الدكاترة المتحمسين. أغمضت عيني وتخيلت السيارة وهي تغرس في الرمال. الماء الشحيح. شيخ القبيلة يستنجد بأفرادها الأشداء. بأي لغة يتكلمون؟ شرف القبيلة. الأغراب مرمغوا أنوفنا في الرمال. العزة والكرامة. النشيد الوطني. بلادي بلادي بلادي لك حبي وفؤادي. مصر يا أم البلاد أنت غايتي وال... لم نعد نهتم للأناشيد في مدارسنا للأسف. أعلنت لي ذات صباح مدرسة ابنتي. قالت إنها فخورة بها. لقد كانت تؤنب الفاطرين في حوش المدرسة. أولاد أهاليهم مشغولة عنهم بجمع المال. تقليد الغرب الأعمى. قرأت على الباب إعلانا عن الGCSI

طبيب ابني طمأنني على حالته. وعلق حنعمل ايه لازم نتعب علشان أولادنا. زوجي لم يكن معي. زوجي لا يصطحبني أبدا إلى عيادات الأطباء. يدعي أنها من عمل النساء. علامة تعجب.

سنبقى يوما إضافيا على حسابنا. هل غطست اليوم؟ أنا لفيت العالم. صحيح لف بارات العالم وقاعاتها المغلقة، حتى اللوفر لم يلق نظرة عليه ولو من بعيد. يفضل المطاعم والنوادي الليلية. أين ابنتي الآن؟ يوم سافرنا إلى باريس. عائلة برجوازية صغيرة لطيفة. لم تفتح ابنتي فمها بكلمة مفيدة. كانت سارحة في ملكوت الله. ابني كان صغيرا ولديه فضول طيب لمعرفة كل شيء. كنا نتآمر معا على وقت نستمتع فيه معا بنزهة لطيفة بعيدا عن الأبعاد اللامرئية للحزن الأبدي الذي يغلف وجود رفيقينا الآخرين. زوجي كان مشغولا بأشياء أخرى وكثيرا ما تركني وحدي معهما. كنت أجر الابنة كساق معطوبة خلفنا. بينما نغامر أنا وطفلي الضاحك بفرنسيته المتلعثمة في كل الأماكن. عند بيت فيكتور هوجو. سألت أخيرا. من هو؟ ولما عرفت من يكون، وقفت على الباب ولم تدخل.

"الآن سيناء على مفترق طرق. بعد حوادث التفجير الحل الأمني ليس هو الحل." ضحكت نجوى وقالت. "الحل هو الحبل." عندما ظهرت جالا فهمي على شاشة القناة الثانية أثارت الاستهجان والاستياء. هل كانوا يقرؤون المستقبل؟ أم كانوا عميانا؟ ما المشكلة في نط الحبل؟ كل البنات تنط الحبل. لكنها لا تنط الحبل ولا تركب الأرجوحة. اتركيها على راحتها. لا تحب الجمباز ولا السباحة. اتركيها على راحتها. تعبت. أتعبتني. أرهقتني. أذلتني. لسنا في فريق واحد. تقدم لي يدا مملوءة بالشوك والحسك والطين. ماذا فعلت لها؟ المرأة عورة. ألم تدرسي دين أبدا؟ لا أنكر المعلوم من الدين بالضرورة وأنا مسلمة موحدة بالله. لكن دعوني أربي ابنتي بطريقتي. حماتي تشيح بوجهها كالعادة. عرفت من أين سرى سم الصمت إلى عروق ابنتي. زوجي يبتسم محتميا بغروره الذكوري. شؤون نسائية تافهة. الخطة مرسومة على الروزنامة. والحياة بسيطة وأنت تعقدينها لأنك تصدقين ما تقرئين.

راندا شايفة إن الذهاب إلى الطبيب النفسي ليس عيبا على الإطلاق. ترددت ثم ذهبت وحدي. حكيت وحكيت حتى التفت الحكايات حول عنقي. كان هادئا رزينا. لابد وأنه تعب من كل هذا الجنون. تحدث في هدوء وتركني حتى أفرغت شحنتي. حالة رفض واغتراب. كانت الكلمتان تطنان في رأسي كالصداع العنيف. "أنا مش قصير قزعة أنا طويل وأهبل." أوك. الأطباء كلهم صفر على الشمال. الدكتوراه لن تعيد لي ابنتي. من هي ابنتي؟

القاعة الفخمة بدأت تخلو من روادها وأخذ عازف الكمان يعزف لحنا ألمانيا حزينا. لماذا ألمانيا؟ لا أعرف مغامرة مراهقة ربما. في ذلك الصيف البعيد في ذلك الكوكب القصي مع ذلك الأمير من عالم الحواديت والخرافات. مارك الأشقر صاحب القبلات الشهية. يجب أن أخجل. في هذا السن وما زلنا نشتهي الرجال. نظرت إلى نجوى في تعجب. قالت "أنت لسة بتعوزي؟" في طريق العودة إلى حجرتنا بدا زوجي عملاقا.

ختام المهرجان. أقصد... لا شيء. الرد كاربت. النجوم. الابتسامات. دنياكم كلها لهو ولعب. لا تساوي عند الله جناح بعوضة. وما ذنبي أنا؟ بدا دكتور أحمد عصبيا. "مصر للطيران دايما تعمل المقالب دي." مشكلة كبرى في تدبير وسيلة ذهاب إلى المطار. البروفسور الفرنسي العجوز يقف وسط الطلبة الإيطاليين وكل يدلي بدلوه. عندما وجدني أسرع نحوي وبدأ يشكو. فرنسية دكتور أحمد لم تتمكن من تهدئة روع البروفسور العجوز. ما من مشكلة. حل زوجي المعضلة ببضع دقات على أزرار البلابيركي وافتح يا سمسم. عالم زوجي عالم مريح. تلفون من حماتي. ابنتك ارتدت النقاب اليوم ولم أقدر عليها.

كانت الصحراء تحيط بنا وسط إسار أنيق مخيف. هرع المؤمنون إلى الجبال والمغاور خوفا من بطش الرومان. لم أستطع التركيز فيما كان يقال. تزعم زوجي المهرجان بالكامل وبدا كأنه صديق الدكتور أحمد الأنتيم. لم أشعر إلا وطارق بجواري ينظر إلي في شفقة. هل كان يعرف؟ دق قلبي وابتعدت عنه. كان قلبي بالكامل هناك في اللازمان الذي حبست فيه ابنتي. ماذا أفعل لها. بها؟ معها؟ بدونها؟

الطبيب إجاباته شافية وافية. دعي التمرد يمر. المراهقة فترة صعبة يحاول فيها المراهق أن يثبت ذاته بأن يكون مختلفا عن والديه. عندما كنت مراهقة كنت أقلد أمي. كانت ترتدي الفساتين الشيك والأحذية العالية وكنت أقص شعري مثلها. لم تكن محجبة. ما المشكلة؟ هل حتة القماش دي هي اللي هتدخلنا الجنة؟ هو حد هيدخلها أصلا؟ ما منكم إلا واردها. لم يستثن أحدا. تشيح راندا بيديها. أنتم لا تفهمون الدين. الدين خلق كي يجعل حياة الإنسان أفضل. ابنتك تغرق وأنت تتفرجين. لا أملك لها شيئا. والدها مسرور بها جدا ويتحدث عنها كأنها قديسة. ابنتك جميلة. إنها تنكر نفسها. تنكر أنها كائن يشغل حيزا من الفراغ. اغسلي رأسها. خذيها في حضنك. انهمرت دموعي غزيرة. لم تحجبها النظارة السوداء. عندما انتزع أحمد مظهر النظارة السوداء بدا العالم ملونا. أما هنا فلا يوجد بطل. طارق. قال في هدوء "كل شيء له حل."

لماذا اعترضت على سفري؟

نظر إلي موظف البعثات في بلادة وتشاغل بأوراق لا تحوي شيئا.

قال بعد أن أوقفني أمامه طويلا

"نحتاج إلى موافقة جديدة من مجلس القسم."

"الموافقة قدام حضرتك والمجلس لن ينعقد إلا في سبتمبر."

"اعملوا مجلس طارئ."

وتركني وخرج إلى الصلاة.

الثأر لشرف ابنة القبيلة. يجب قتل الأغراب عن بكرة أبيهم. سائق التاكسي البدوي لم يتكلم معنا. كنا ننظر إليه بطرف أعيننا. هل تتكلم العربية؟ لهجته ليبية أو سودانية. هذه ليست لهجة مصرية. كاميليا اعترضت سيناء مصرية كالصعيد تماما. ما هي مصر؟ كاميليا تعتز بقبطيتها ومصريتها. تقول أنا فرعونية. وأنا أيضا. عين الشك. من أين أتى أجدادك؟ أبي أصلا من أصول ريفية بالدلتا وأمي كذلك. ربما هناك عرق تركي هنا أو هناك. هل تفتخرون بما يعكر الدماء النقية؟ ابنتي ترى في الوطنية هراء. زمان كان عندنا حصة التربية القومية. زوجي يضحك في سخرية والأرض تميد بي. طارق يمد لي يده. أرفضها في كبرياء.

يبيعون الرمال الملونة. نجوى تحذرني أنها تايواني. ما أدراك أنها رمال سيناء؟ خذي حفنة وضعيها في زجاجة أبرك. تنت عظيمة بعد أن عادت من الحج أحضرت لي إلى جانب الغويشة الذهب زجاجة من ماء زمزم. كان ذلك العام الذي توفيت فيه. كنت على أعتاب الأنوثة أو ولجتها بقليل. كنت أعرف أنها تعرف أنني مغرمة برفيق الحديقة. وكانت معرفتها تطمئنني. زارنا الموت لأول مرة تلك السنة وحاولت تجاهل أنها ماتت، وأقنعت نفسي في النهاية أنها سافرت للحج مرة أخرى. وبانتظار عودتها احتفظت بصوري معها وهداياها داخل صندوق وعلقت فوقه قلبا من القطيفة الحمراء.

في السوق الروس هبطوا بالبضائع إلى أسفل سافلين. كل ما هو روسي يشبه الكذبة الكبرى. هل تودين مشاهدة العرض الليلة؟ كان طارق جريئا وهو يتكلم معي أمام زوجي. وبدا زوجي متجاهلا حالة الثلاثي التي كنا ننزلق إليها. كنت حزينة. وافقت. مضى زوجي في طريق مغاير. عادت معنا نجوى وهي تقول لي "زوجك زي القمر. ابقي بخريه."

أخفت وجهها إلى الأبد. غادرت عالمنا وهي ما زالت حية. أصبحت سجينة. كيف أحررها؟ كيف أنظر إليها. حماتي تصرخ في التلفون أنها لا تطاق. "مش كدة يا تنت دي لسة عيلة." زوجي يشد مني التلفون. يطلب الكلام معها. تأتي. لا أسمع صوتها. أبكي في صمت. يغلق زوجي التلفون ويتنهد. ماذا قالت؟ "وإن جاهدوك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفا." أبكي في صمت.

أخرج من الغرفة في الصباح حاسرة الرأس. يتأملني زوجي. يأخذني بين ذراعيه ويقبل رقبتي. يشدني إلى الداخل. أسقط وأغرق. الشاطئ غير مزدحم. الريح شديدة بعض الشيء. يأخذ زوجي عدة السنوركلينج ويبتسم لي ويمضي. أجلس على الكرسي وأحاول التأمل. فيم أتأمل؟ كانت أمي تثني دائما على ذوق أختي في اللبس والماكياج. كانت تشير إلي بما ألبس. نجحت في كل المواقف. الجمال جزء من الحياة. لو ضاع الجمال لاستحل الموت الحياة وصرنا إلى فناء. « في الظلمة لا مكان للجمال ». الشاتل يحضر المزيد من الأجساد المتعطشة للبحر. رحل المؤتمرون. خلصت الأبحاث.

عليّ أن أنتهي من البحث قبل المهلة المحددة. الدكتور شهدي يلوم مشرفي لأنه يدلعني. الدكتور أشرف رجل وقور. كان يحبني. كان يرى فيّ امرأة مثالية. من نظر إلى امرأة ليشتهيها فقد زنى بها في قلبه. هذا صحيح، إلا أن علاقتنا كانت في حدود الاحترام والتقدير. أتمزحين؟ نعم، قبّل يدي. هل تظنين نفسك بطلة فيلم أمام أحمد رمزي؟ سيقبل يدك ويطلب منك "تسمحي لي بالرقصة دي؟" أين كان يحدث ذلك؟ على الشاشة الفضية. لم أسمع أبي يطلب من أمي "الرقصة دي" أبدا.

تنت عظيمة حدثتني عن حفلات أم كلثوم التي كانت تحضرها مع زوجها. أمي كانت تحب أم كلثوم. شرائطها مع شرائط عبد الباسط عبد الصمد كانت جنبا إلى جنب في درج الكوميدينو في حجرة والدي. ماذا كنا؟

طارق قال شيئا لنجوى عن أنني مرشحة لمنصب قريبا. غمز لي وهو يمضي. دعوة مفتوحة للخطيئة؟ قلبي يدق. وجسدي ثقيل. أشتاق إلى حمل طفل جديد. خليج نعمة يمتد على مدى البصر. أصوات طيور تحلق بعيدا وتبتعد أكثر. لا أعرف متى يعود زوجي. أما زال يفهم لغة جسدي؟ هل من حقي أن أحصل على اللحظة الحاسمة في التقاء الجسدين؟ أم أنا هنا كي يقضي مني وطرا ثم أمضي؟ وداعا شرم الشيخ. ربما نعود قريبا. يمكنكم النزول في سلطانة أو هيلتون شرم الشيخ. الأفضل أن تكونوا قريبين من السوق. لا تخافوا، البدو الآن يرسلون أولادهم إلى المدارس المصرية والحكومة ستملكهم الأراضي. أليست أرضهم أصلا؟ بوضع اليد. يعني ايه وضع اليد؟ هل أعجبتكم السهرة البدوية؟ عادية. أعرف أنه سرح مع الأجساد الرخصة. كاذب. أشعر بوجع غامض وخوف شديد.

القاهرة (حُب)

القاهرة مدينة الألف مئذنة. هيا نحصيهم. أكثر. لم يعودوا يبنون الجوامع بمآذن. يحولون البدروم إلى مصلى ويضعون يافطة. حماتي قابلتنا بوجه مكفهر. وفي قلب الصالة وجدت ابني في حاله. أين هي؟ زوجي دخل أولا وطلب مني أن أبقى في الخارج. شكرته في سري. أخذت ابني في أحضاني. حماتي احتمت بالمطبخ ووضع البواب الشنط ووقف طويلا بانتظار المزيد من المال.

قال ابني "مش فاهم هي ليه بتعمل كدة. ليه مهيش زينا؟"

من تكون؟ خرج زوجي وهو يجرها. كانت ترتدي ثوب الصلاة. لم تسلم علي لكنها استسلمت لحضني. بكيت بصوت مرتفع وجريت إلى الغرفة. كنت أشبه لبنى عبد العزيز وهي تجري خجلة بعد أن نالت صفعة. الحجرة التي دخلتها كانت كالمقبرة. كل ما فيها غامق غامض ويخفي أسرارا. تعثرت في الكثير من الأشياء التي لم أتبين معالمها.

رحلنا عن بيت الحماة في المساء. خفف عني حديث ابني الكثير. قرر أن يدخل الجي سي آي. زوجي يأخذ الأمور ببساطة. هذا عمل النساء. لا تنسي!

نحن الآن في القاهرة. ابتلعنا الأسفلت ومادت بنا الأنفاق. ثم نجونا ودخلنا بيتنا. كنا من أصحاب الحظوة في المدينة المتكدسة. دخلت إلى بيتنا وأنا أتساءل لم لا تفتح عينيها على هذا الجمال. هذه الشرفات الواسعة والخضرة والحراسة أربع وعشرين ساعة. والشغالة الأنيقة والثلاث حمامات. نحن في نعمة. ألا بنعمة ربك فحدث. لم لا تقرأ القرآن كما أقرأه أنا. أنا مسلمة وموحدة ومؤمنة بالجنة والنار. وأريد دخول الجنة. طبعا. راندا تقول لا فرق. كلنا رايحين على النار. اطمئنوا. الشيخ فلان زي الراقصة علانة كلهم واردها. راندا لا تكوني نذير شؤم. راندا ترى الأمور بطريقتها. أعترف أنني منبهرة بها. لكن عند حد معين أعجز عن ملاحقتها في شطحاتها. لماذا تخافين من التفكير؟ أنا عملي أصلا التفكير؟ أنت لا تفكرين؟ أنت تتركين الآخرين يفكرون ثم تتأملي في نتاج أفكارهم. هل تحبين زوجك؟ طبعا. لأن الأخريات يرين أنه زوج مثالي فأنت مطمئنة. راندا أنت لا تفهمين. أنا أحب زوجي. أقصد مفيش حاجة اسمها حب. راندا أنت تزوجت أمريكي صعب أن تفهمي. شارتها القرمزية. لا تهتم. حتى نجوى تتهامس أنه لم يكن حتى زواجا. "يا شيخة حرام عليك ده كان فيه ورق رسمي." "ولو." نجوى تحب راندا على طريقتها. لا ينقصك إلا الحجاب. المسألة ليس فيها إقناع ولا اقتناع. الأمر الإلهي لا يناقش.

ورقة وداد رقم واحد

دار المنادي في الطرقات : يا أهالي المحروسة. الحاضر يعلم الغائب أن النساء لا يخرجن إلى الطرقات إلا مع محرم ينير الطريق كي يبتعد عنهن القاصي والداني. والحاضر يعلم الغائب. ممنوع خروج النساء.

دار المنادي في الطرقات طويلا. وزع نداءه كما توزع المنشورات. وأعلم الحاضر الغائب. التفت وداد على نفسها. كانت تريد الخروج كي تشتري صوفا للغزل. زوجها لا يكاد يفي باحتياجاتهم. وهي بانتظار الطفل الرابع. ربك يفرجها. انتظري عودة أبي محمود. أبو محمود حمله تقل يا خالة. لا تهني ولا تحزني. أنا أتشح بالسواد. وأخرج. محمود امسك الفانوس لأمك وأنر طريقها. الغزل شحيح والأقوات شحيحة. لقد طلب منهم تحريك جبل المقطم. بدأت بنكتة وانتهت بتوجس. لقد طلب من البابا إبرام بن زرعة نقل جبل المقطم من مكانه. ألستم مؤمنين؟ قاهرة المعز شهدت المعجزة. لكن وداد تكاد تشحذ قوت أولادها. زوجها رجل طيب بتاع ربنا. لا يضربها ولا يهينها. لكنه قليل الحيلة. الغزل لم يعد يكفي يا خالة. إلى أين أذهب؟ اذهبي إلى وجه كريم؟ من يقصده لا ينضام. تبكي بلا دموع.

القاهرة اتسعت وتمددت على راحتها. مصر داخلة الحرب قريبا. ما لنا والحروب، خلينا في أكل عيشنا. الطفل الرابع في الطريق. وقود الحرب. الشوارع خالية من المارة. الحارات ضيقة. البيوت خانقة. لا تأكلوا الملوخية وإلا فالسيف! أنتم في نعمة لا تعرفون مقدارها. احمدوا الله واشكروا فضله. كان إمام الجامع دوما يتكلم بعد أن يشبع. كانت وداد تسمع طرفا مما قال من البائعين في السوق.

بنوا مسجدا جديدا. الخليفة وصل. جاء. تربع على العرش. لا نريد أن نرسل أطفالنا إلى الحرب. مالكم والحرب؟ المصريون مسالمون. لكنهم خير جند الأرض. فليذهب إلى حيث يشاء، نحن ها هنا قاعدون. وداد تحاول استجداء فتيل القنديل كي يستمر وقتا أطول. تنتظر شقشقة الفجر كي تزيد الغزل. بائع الخيوط والحرير يستقبلها بفتور. يدفع لها عملة دق عليها ذهب المعز. أين الذهب؟

القاهرة المدينة العامرة. هنيئا لك مليكك الجديد. من نحن؟ ألم تقرؤوا الخطط المقريزية؟ زوجي رجل قليل الحيلة يا خالة وأولادي ما زالوا صغارا. وداد تغني بصوت خافت موالا للشجن. يعود الزوج من المسجد الجديد. يتكلم عن الأبهة. حاجة ترد الروح. هل بعد الموت حياة؟ لو كنت رجلا! هل ستكفرين؟ ارضي بقليلك. القاهرة تستعد للاحتفال برمضان. الفوانيس في الشوارع. الناس تسارع لشراء قمر الدين والكنافة والقطائف. كل شيء معبق بطلة الشهر الفضيل. القاهرة جميلة. وداد تتفاءل. أطفالها الأربعة بصحة جيدة. ربنا يبعد عنا العين والمرض. الغزل ما زال غير كاف. لكن ربك كريم يفرجها.

القاهرة (حارة)

ابنتي التزمت غرفتها طوال إجازة نصف العام تقريبا. تتحدث مع أشباح. أشعر أنها لم تعد معنا. هل ترفضيننا؟ فقط أرفض المدرسة العلمانية.

"عايزة تبقي ست الشيخة؟" قالتها أختي في انفعال.

لم تحرك ساكنا. ظلت صامدة على موقفها.

زوجي أنهى السيرك بقرار رئاسي غير قابل للنقض أو الاستئناف.

"هتروحي المدرسة ورجلك فوق رقبتك ولو سقطت في أي مادة مش هقولك اللي هيحصل لك، بس أنت عارفاني لما أغضب."

نزل علينا سهم الله. كان زوجي في الغالب الأعم رجلا منبسطا سلسا يعرف كيف يسيطر على كل الأمور بدون عنف. صوته العالي وحضوره الطاغي كانا يساعداه على فرض رأيه. أما هذه اللهجة البلدي كما أسمتها أختي فهي جديدة عليه وعلينا. هل هناك مارد في مكان ما ونحن لا نراه؟ ابنتي نظرت إليه في دهشة وأطرقت ثم رفعت عينيها إلى نقطة في الفضاء وراحت فيما يشبه الغيبوبة. هل استسلمت؟

راندا دعتني إلى الخروج للرياضة قليلا. تنفسي. اعتذرت. طارق هنا. كيف دخل؟ كان المكتب خال. الكلية شبه صحراء في الإجازة. الناس بتتفسح. جلس ومد رجليه. كان وسيما ومدمرا. "أنت مدعوة إلى..." اللهجة الرسمية حيرتني. هل يريد مني أن أوافق؟ لماذا اخترتموني؟ بدلا من السؤال أجيبي. تحد؟ وافقت وأنا أشعر بالنشوة. إبليس كان ثالثنا.

في السيارة بحثت عن صوت راغب علامة. "حلوة يا أم الخال" كانت أغنيتنا المفضلة على شط المتوسط. شعرت بوجع الحنين. وجع طاغ. تحسست يدي وجها اختفى خلف غيوم كثيفة، صنعتها سنوات حياتي السابقة، دمي ودموعي وابتساماتي. كان دمث الخلق، حنونا. كان يسكنني بحب غريب التف حول قلبي ودفع بي في طريق لا نهاية له. كنت غضة وطرية وفاتحة ذراعي للحرية. كنت صغيرة. تنهدت وحاولت أن أتجاهل وجهها العابس يطل عليّ خلف زجاج نافذة سيارتي، نساء بملابس متهدلة يمسكن بمحافظهن الصغيرة خشية أن تفلت الحديدة من بين أيديهن، أطفال بملابس متسخة، وسيارات تويوتا وفيات وايبيزا ومرسيدس وواحدة شيروكي مرت أمامي وسرق سائقها حارتي. حاولت تجاهل العالم الصاخب خلف حدودي الوهمية المصطنعة، مثل البوابة الضخمة التي تفصل مدينتنا عن محور 23 يوليو. تحيط بنا كالقلعة الحصينة. تذكرت ابنتي فأخرست صوت راغب علامة وأصابني الوجوم. مررت من أمام نقطة شرطة المعادي. ما زال سكان المعادي مستائين من وضعهم في تقسيم مع سكان حلوان. عندهم حق، كيف يلخبطون أبو قرش مع أبو قرشين. جدتي لأمي كانت تسكن المعادي. كانت شقتها في الدور الأرضي وكانت شرفتها الطويلة مزدانة بالفل والياسمين. كنا نلهو بالدراجات في الشارع العريض الآمن.

قررت الحكومة المصرية وصل الضفة الشرقية بالضفة الغربية والتوسع بإنشاء حي جديد يصل بالضفة الأخرى من النيل عن طريق معدية. النيل نجاشي. النيل الجميل الأسمر الصابر.

طالعني وجه أحمد السقا في طريق عودتي إلى البيت بعد يوم مرهق مضطرب. كان عقلي يعمل بسرعة. وجوه تتراءى على صفحة الماء أمامي. ابنتي، طارق، زوجي، ثم يعود طارق وأنتهي إلى ابنتي. نعم، كل البنات لهن فارس أحلام. إنه سن الأكاذيب. كل ما هو كذبة يبرق وليس بالضرورة أن يكون ذهبا. عدت إلى البيت وأنا مسلحة بتفاؤل كبير أنني سأعمل ما عجز الطبيب النفسي الشهير عن عمله، وما عجز تهويش زوجي عن عمله.

وجدتها في حجرتها تذاكر. ماذا تقرأين؟ فيزياء. انتهيت؟ تقريبا؟ تركتها وحاولت أن أغتسل بسرعة وأغير ملابسي حتى أركز فيما نويت عليه. أزحت الجميع من طريقي ودخلت الصومعة الرمادية. أغلقت الباب بهدوء ولم تلتفت إلي. اقترحت أن نمضي الأمسية معا بطريقة مختلفة. معي خمسة دي في دي. نعمل فيشار ونتفرج. كانت قاعة السينما غير مشغولة، لكن ابنتي الناسكة لم تكن تدخلها أصلا.

اقترحت تغيير ديكور غرفتها قليلا والفرجة على الأفلام. هزت رأسها في أسف. ونظرت نحوى كأنها لا تراني، لاحظت بوادر حول في عينيها وهالني الأمر. قلت لها إن فيلم عن العشق والهوى فيلم قيم وليس تافه. أحمد السقا غير عادي. أتعرفين يوم جاء إلى الجامعة من شهور قليلة الأمن كاد أن يستخدم خراطيم الحريق لتفريق الطلبة والطالبات عنه. حدثتها عن ولعي بعمر الشريف وأنا صغيرة ثم بحسين فهمي وانتهيت إلى شخص لم يكن يعرفه أحد إلا أنا توفيق عبد الحميد، هذا قبل أن يشتهر. قلت لها إنني كنت أحب توم كروز سرا وأنه سر أخفيه عن زوجي حتى اليوم.

حاولت أن أكون روشة قدر المستطاع. لم تكف عن النظر نحوي وكأنها لا تراني، تنظر إلى نقطة ما في الفضاء كأن قرنا خرج من رأسي وهي تحاول التمعن في كنهه. سألتها إن كانت معجبة بأحد الفنانين. أغلقت كتابها و. الفن حرام. توقعت الكليشيه. تظاهرت بأنني لم أسمع شيئا.

أحمد السقا يختلف عن هاني سلامة وخالد أبو النجا. أحمد حلمي يحاول أن يكون عميقا لكن على طريقته. هل نحن في نادي السينما؟ لم أعافر ويبح صوتي مع هذه الفتاة؟ هي ليست فتاة. من أنت؟ أمة الله؟ يا ابنتي كل مخلوقات الله منه وإليه. الله لا يريد منك العبوس والانزواء. من أنت؟ طفلة؟ امرأة؟ ماذا حدث بعد دورتك الشهرية الأولى؟ لا شيء. الطهارة. بلغت الحلم وبعد. من أنت؟ لم لا تجربين أحمد السقا؟ لن أغضب الله. أخيرا تكلمت. ولم يغضب الله؟ هل يختبر الله مشاعر بشرية؟ ألا يترفع عن المشاعر؟ المشاعر ضعف. والله القوي القدير. ظلت تتمتم وكأنها تتلو طلسما.

تركتها. هجرت مكانها. أخذت الاسطوانات وهرعت إلى زوجي. كان يتكلم على الموبايل. أكيد مع عشيقة جديدة. أعرف شكله ورائحته عندما يلعب بذيله. تركت مكانه وهاجرت.

أتاني طارق في المنام كي يمسد جرحي. في الصباح اتصلت به وطلبت مقابلته. وافق. التقينا في مكتبه. فخم عريض سجاجيد غالية العلم وصورة الرئيس وطبق الحلوى الفاخرة ورائحة الأزهار الندية. هو كان أحلى ما في الغرفة. الزاني للزانية. لم أكن أبدا زانية أما زوجي فيزني كما يتنفس، ببساطة وتلقائية. راندا تقول إن تقنين الخيانة وتشريعها بدعوى الحفاظ على تماسك الأسرة هو جريمة ضد الإنسانية. راندا دائما تبالغ كي تبرر اختلافها عن الآخرين. لقد تزوجت في الغربة وعادت عزباء. لم يتقبل أحد ما فعلت. لكنها ما زالت صامدة. إلى متى؟

هدى هانم شعراوي، نور الهدى محمد سلطان، تقول: تعدد الزوجات فيه مذلة للمرأة. خرجت المرأة الأرستقراطية المرفهة من خدرها كي تنادي بالحرية. أعتذر منك لأن ابنتي قد خذلتك. راندا تدعي أنني السبب. تركتها وحدها في

مرحلة ما من الطريق. لا أذكر متى. لست أما مهملة. أنت تتكلمين كثيرا وقدرتك على الفعل محدودة. اتهامات. هلا شققتم عن صدري؟

كانت الحوارات من على شاكلة "ناقصات عقل ودين" و"إن كيدكن عظيم" أو الحوارات التي تنتهي بإحدى هذه النصوص المقدسة تثير قلقي وتدفع بي إلى هوة من الصمت. كنت أتخفى كثيرا عندما تبدأ واحدة من تلك الحوارات في مكاتبنا أو في قاعات الكونترول. كنت أقضي وقتا عند نجوى أو رندا أو مع كليهما. لم أحاول التحدث كثيرا عن ابنتي. لكن كان مكتوبا على وجهي الأزمة التي أمر بها. النقاب فريضة؟ اختيار؟ اختباء؟ تعالي على الآخرين؟ المدرسة رفضت الوضع وذهب زوجي للحديث مع رئيس مجلس الإدارة مباشرة. الابنة باقية في غرفتها. الأخ يتندر على سلوكها. أنا حيرى بلا مرسى.

رندا لامتني ثانية على ما انتهت إليه ابنتي. أين كنت وهي تتشكل على أيدي الغرباء؟ أين كنت؟ تعرفين يا رندا ظروفي مع مشرفي. ألا تدرين أنه عمل لي التشكيل ولم يكد يفعل؟ ألا تدرين أن زوجي كان يكسر لي مجدافا وراء الآخر؟ لم أخبرها أنني كنت أعاني في مطلع الثلاثينيات من فورة في الجسد وتمرد في المشاعر كنت أكبته دوما. لم أخبرها أن زوجي كان يأتي ببقايا لياليه الرخيصة إلى فراشي. لم أخبرها أنه كان علي تجرع رائحة الأخريات ونتف لحمهن من على جسده. لم أخبرها أنه لم يكن لي من مهجع من هذا الهجير سوى ابني الصغير. كان طفلا مبتسما متكلما لمضا. يواجه جدته العابسة بشجاعة كنت أفتقدها. لم أخبرها أن الجدة كانت تعد قطع الذهب في دولابي قطعة قطعة وتجرعني إياها دموعا وعذابا. لم أخبرها أنني كنت أنفق وقتا كبيرا أمام مرايا مصففي الشعر وصالونات التجميل كي أبقي على شعرة معاوية في فراش الزوجية. لم أخبرها عن قلبي المهزوم في كل المعارك.

انتهت السيدة مفيدة عبد الرحمن من قصة حياتها وتأملت نفسي في مرآة هذه المرأة. كانت تقطع الطريق ماشية من بيتها إلى جامعة القاهرة وهي حامل لأن زوجها كان رقيق الحال. مفيدة عبد الرحمن عبدت طريقا تخربه ابنتي ومن على شاكلتها. حاولت التحدث إليها في أمور عابرة تافهة. سألتها عن الكراسة الرمادية وإن كنت أستطيع قراءتها. تركت لي الدفتر مفتوحا وغادرت الغرفة.

لقد خلق الله الأرض ومن عليها ليعبدون. البشر لا يعطون هذا الأمر حق قدره. وأنا كامرأة عبئي أكبر. لقد حملت صليبي على قدر شجاعتي من زمن طويل. الشباب يحتجون والبنات كتفا بكتف معهم. في الكراسة الرمادية كلمات ممزوجة بنصوص مقدسة. لم تكتب شيئا شخصيا. لم أعثر على اسم أو رسم. كم تمنيت لو كانت الكراسة وردية بقلوب واسم سري. كم تمنيت لو صارعتها على قدر الحرية وعلى حب خلف ستار الخوف من الأسرة. كم تمنيت لو عبدت الله على طريقتي. لم أجد في الكراسة دليلا. وجدت حزنا. لم أعرف مصدره. ابنتي حزينة بل يائسة. كلماتها مغلفة بمعان موت ونهاية. إنها عاشقة... موت. قرأت كلمات "الشهادة"، "الشهيد" آلاف المرات. مرت عيناي على الخط الصغير المنمنم عدة مرات، قلبت الصفحات في كافة الاتجاهات. الحديث عن الشهادة والموت يحتل مكان الصدارة. انقبض صدري. ليلتها حاولت أن أعبر بكلمات مفهومة عما قرأته في الدفتر لزوجي. لم ينصت. أدار ظهره إلى كل شيء. ونام.

أصبحت أرى طارق بشكل شبه يومي. موعد السفر يقترب وأنا أترقبه بفارغ الصبر. وصلت السيارة في السادسة أمام بيتي. كان السائق شابا أسمر صموتا. جلست على المقعد الخلفي محاولة تخيل النهار القادم بين يدي طارق. دخل السيارة مبتسما ابتسامة لا أذكر أنني رأيتها من قبل بهذه الروعة والألق. كان سعيدا ومنتصرا. جلس بقربي وجعلني هذا

القرب كقطعة من العجين. شعرت بمفاصلي تطرى وعظامي تذوب. كان إحساسا مخيفا جديدا لاذعا. كنت متأكدة أنه يعرف. على الكورنيش الساكن في ذلك الصباح الباكر توقف السائق قبل الدخول في الطريق الزراعي، وترجل من السيارة. طلب مني طارق الجلوس في المقعد الأمامي. أمسك الدفة بكل اقتدار.

زيارتنا للجامعة الإقليمية خلقت بيننا رابطا خفيا لم أعهده من قبل بيني وبين طارق. نسيت موقفه السابق من بعثتي. كان زمنا ماضيا. كنت منهكة من الحمل. كان زوجي يخونني في هذه الفترة بإفراط، لدرجة أنني أذكر أن النوم لم يكن يأتيني إلا بعد بكاء طويل مكتوم. هذه البعثة كانت محاولة مني لتغيير مسار الحياة بالنسبة لي. طارق كان ساخرا وحادا في عرقلته لطلبي. الآن غفرت له هذه الزلة، بل ربما شاركته نظرته المحتقرة إلى تلك المرأة التي كنتها في تلك السنة.

الآن في سيارته التويوتا أحاول إعادة تشكيل ذاكرتي. نظرت باستفاضة وجرأة من خلال نظارتي السوداء الكبيرة إلى ملامح وجهه. كان وسيما بشكل خاص. لا يمكن اكتشاف وسامته لأول وهلة، عكس وسامة زوجي التي تأتي في جرعة زائدة على النظر وتدفع بكل امرأة شريفة إلى خفض عينيها. أثناء الخطوبة، كانت النساء تستدير نحوه في وقاحة وكنت أتجرع الهزيمة تلو الأخرى. أما جمال طارق الرجولي فمختلف. شيء ما يغلف ملامح وجهه يجعل منها ككل شيئا متناسقا بديعا. أفكاري أصبحت تسحبني إلى القاع وأنا خائفة.

تحدثنا في أمور عدة. لم يعد للصمت مكانا بيننا. كنت أخاف الصمت. اتصل بي زوجي بعد أن استيقظ ونحن في منتصف الطريق. صوته أعادني إلى أرض الواقع. أكاد أقسم أن طارق احتفظ بابتسامة ساخرة على ركن فمه طوال المكالمة. هبط الصمت للحظة بعد أن أغلقت الهاتف. كلمته عن ابني ومحاضراتي. تكلمنا عن الزملاء. طارق رجل خطير.

مرت الزيارة بسلام نسبي. العميد ابتهج من دبلوماسية طارق وسلبيتي الجاهزة. ربتنا على كتف الدكتورة ليلى وأسمعناها من عبارات الإطراء ما طمأنها إلى أن تقريرنا سيكون إيجابيا. دهشت لحال قاعات المحاضرة. القاعات ضيقة وغير مجهزة. لم يجهز أحد دوسييه تدريس كما يجب. صحيح أن الكلية فاقت توقعاتي. كنت أحمل نظرة متأخرة عن الريف. عهدي بمدن الدلتا يعود إلى ماض قديم ولا أكاد أذكر شيئا من زياراتنا لمدينة صغيرة. المدن الصغيرة خانقة تعيش على تخوم الريف ترتوي منه ولا تكاد تمس حالة الحضر إلا بشكل سطحي. رأيت التناقض صارخا بين الدكتورة الاسكندرانية بلكنتها المختلفة وملابسها الأوروبية وبين طلبتها وطالباتها على الأخص. نفس التناقض بين حالة ابنتي المتأخرة مكانا وزمانا عن بيتها وأسرتها وزميلات دراستها. عدت إلى الشرود لأن طارق مال علي هامسا بشيء ما ونحن نتناول المرطبات في مكتب العميد. لم أفهم كلمة مما قال لكن أنفاسه حرقت وجهي.

قررنا البقاء في فندق الجامعة الفخم. كانت الحجرة واسعة ومنيرة. جلست على الفراش ساهمة متعبة حزينة. أتصل بالبيت. ردت هي. الابنة الصامتة. تكلمت معي بحيادية. صوتها جعلني أشعر بوخز الندم. علام؟ لم يكن هناك شيء محدد. طلبت الحديث مع أخيها. تكلمنا بفرح لبعض الوقت ثم قلت له "اديني بابا". احتجت إلى أن أقول له "وحشتني". لم تخرج الكلمات من بين شفتي. كان قلبي موجوعا. أردت حتى أن أتلفظ بلفظ الحب فلم تطاوعني شفتاي. حاولت إطالة المكالمة كي أجد شجاعة قول الحب.

زوجي أنهى الموقف بقوله: "متتأخريش بكرة في الرجوع."

سألته "وحشتك؟"

سمعت صوت الصمت ثقيلا. لم يعقب. زوجي لم يكن يجيد ولا يعرف ولا يقول ولا يعبر عن مشاعر حب. كان رجلا عمليا ينفذ ما يريد بلا كلام كثير. أعرف أن أصحاب النفوذ والمال من أمثاله لا يتوقفون كثيرا عند محطات الحب، لأنهم يحصلون عليه من طرق مختصرة وبلا كثير عناء.

الليل طويل والعميد دعانا إلى سهرة في بهو الفندق. تناولنا العشاء مع لفيف من هيئة التدريس. كان من الواضح أنهم رجاله ونساؤه المخلصين. طارق كان قد شرح لي بانوراما مختصرة لتحالف القوى في الكلية قبل ذهابنا. تزعمت الدكتورة الجناح النسائي من المائدة. كان أمرا عجيبا، كنا معا لكن الاختلاط لم يكن تاما كاملا.

تذكرت أيام الدكتوراه في جامعة نيس. عشت السنوات الثلاث لأول مرة في حياتي ناسية نوعي وتصنيفي الدائم خلف الأستار. كنت أمشي في الشارع طائرة، أبتسم لمن أريد دون وجل. أتحدث مع من أريد دون خوف من الهجوم علي. كنت أقبل وأرفض بلا أفكار مسبقة. تكلمت مع أناس من كل دول العالم، رجال ونساء. كنت حرة. كان زوجي يأتيني في إجازات قصيرة بمفرده. أعتقد أنها ربما تكون الفترة الوحيدة التي عشت فيها ما يشبه العشق معه. كان يراني في الوسط الفرنسي بعينين مختلفتين. كانت ابنتي في الثانية وكنت سعيدة بحياتي معها. كانت طفلة هادئة طلباتها محدودة. تفرح بكل شيء. أتساءل ماذا بقي في ذاكرتها من هذه السنوات الثلاث. الآن على مائدة العشاء الأكاديمية أرى العالم من خلال ناظري باحثة علم. طارق كان يبعد عني بعدة مقاعد. شعرت بالشوق إليه فجأة. لقد سقطت.

انفردت بي الدكتورة ليلى بعد العشاء. حاولت معرفة مزيد من التفاصيل عن تقريرنا. تمنيت لو أتى طارق لنجدتي. كانت أذكى مني تعرف كيف تدور وتباغت من النقطة المناسبة. فجأة انهالت علي بأسئلة شخصية عن طارق وعن حالته الأسرية. اعتقدت أنني تلعثمت وأفسدت حالة الاحترام التي كانت بيننا. شيء ما انكشف أمام نظرة المرأة الثاقبة. أمر واحد طمأنني أن طارق كان يوفر لي حماية غير مرئية فقد كانوا يعرفون قدره وقدر من يؤيدونه. في الطريق إلى غرفتي، أوقفني في الطرقة الفاصلة بين حجرتينا ومال علي يتمنى لي ليلة طيبة. أفلت منه وأغلقت باب الغرفة بإحكام.

كنت مرتبكة ومرعوبة. طارق يعرف أنني وقعت تحت سلطان طغيانه. نعم هو رجل طاغ قوي. يجذبني إليه بشكل لم أعهده في نفسي أصلا. رن الموبايل فجأة بنغمة رندا. رفعت السماعة وتلفظت بآلو خافتة وكأنني لصة. سألتني إن كنت نائمة. لا أعرف ما قلت لها. لكنها كانت حانقة. زوج نجوى اتصل بها وطلب منها أن تخبر زوجته أنه متزوج من أخرى من شهور وأنه ينوي إعلام العائلة.

قالت رندا وأنا أشعر ببخار غضبها يلفح وجهي "الوقح قال لي إني مسئولة نجوى متجيلهاش صدمة عصبية وإني لازم أفهمهما إن البيه استخدم رخصة شرعية وإنه بيخاف ربنا."

رديت في بلاهة "نجوى حاجزة تسافر لبنان بعد أقل من شهر."

سمعت رندا تتنهد بصوت عال. "افهمي يا دينا. الجمال مش هو اللي هيحافظ على راجل خاين. الست لما تخون يدبحوها بسكينة تلمة أما الراجل الخاين فبيقيموا له الأفراح والليالي الملاح."

لم نتفق على شيء. طلبت منها أن تقابلني بعد أن أعود إلى القاهرة. اضطربت للخبر ورنت كلمات رندا الثائرة في رأسي.

استلقيت في البانيو وتركت شعري الطويل يطفو على السطح. يجب أن أقصره بعض الشيء لأنني أبدو أصغر في قصة الكاريه. كما أن زوجي لا يحب شعري طويلا. أنا أحبه مسدلا على كتفي. كنت أستمتع بالمشي في الجو الربيعي البديع في شوارع نيس وشعري يحيط برأسي وكتفي والشمس تداعبه كعاشق حار. كان شعري يتلون بلون بني فاتح عند تعرضه طويلا للشمس. إيمان خبيرة التجميل والشعر التي لازمتني رحلة الحفاظ على الجمال لسنوات كانت تقول لي ألا أسرف في صبغه حفاظا على ألوانه الطبيعية المتعددة. لكن الزمن الغادر لا يدع لنا طريقا لنفعل ما نريد.

وضعت بعضا من ملح البحر الميت في الماء وشعرت بوخزة ألم لازمتني طوال الليل. كان ألما غريبا شعرت بتوحد مع نجوى. لقد تعايشت مع هذا الألم طوال حياتي وكان عزائي أنه ألمي الخاص، لم اضطر لعرضه أمام أعين الشامتين والحاقدين والكارهين. عشته في غلاف من الصمت. أما نجوى فستعلق كالذبيحة على باب "على عينك يا تاجر". لم أستطع تخيل ردة فعلها. نجوى يمكن أن تصرخ وتشتم وتنهار. نعم لقد ماتت نجوى. لهذا أنا أشعر بهذا الألم. يا ليتها ماتت. راعتني فكرتي القاسية. لكنني أعرف أنها عاشت عمرها كله وهي مرعوبة من فكرة أن تغتصب أخرى مملكتها. نجوى عملت بكد طوال سنوات زواجها لتدليل زوجها وتقليم أظافره التي قد يخمشها بها. كانت تحاول أن تتوازن ما بين الخضوع التام والطاعة العمياء والحرص على ألا يعملها في لحظة سرحان منها. ويبدو أنه وجد طريقة للإفلات.

عادت أفكاري فجأة إلى طارق. لويت شفتي قرفا وقلت "ما هو إلا خائن آخر".

خلعت البرنس أمام المرآة العريضة. اكتفيت بنور الأباجورة الخافت وأخذت أنظر إلى جسدي. لم أفعل هذا من سنوات حتى بت لا أعرف كيف أبدو، حتى في صالون التجميل أدفن نظري في مجلات الموضة والفن. لم أعد أنظر إلى جسدي إلا عند الضرورة. في فراش الزوجية يلفنا ظلام كثيف وأحيانا ننهي الأمر في صمت تام. زوجي لا يعرف تفاصيل جسدي. لا تعنيه كثيرا. همه الأول والأخير أن أصل إلى الأورجازم. يريد أن يخرج منتصرا.

يقول لي دائما "كام رجل يقدر يوصل مراته كل مرة؟ اسألي صاحباتك كدة وقولي لي كام واحدة فيهم تعرف أصلا ايه هو الأورجازم."

في البداية لم أكن أصدقه. إنما أثبت لي الزمن صدق كلامه. لكن جسدي كان يتوق إلى شيء آخر مختلف تماما. لقد استنفذ زوجي رحيق جسدي في عمليته الميكانيكية الباردة. ربما أكون ناكرة للجميل لأن زوجي كان يعتبر هذا جميلا يستحق الشكر. كان هناك حاجزا من فولاذ بيننا قبل الفراش وبعده. أثناء لقائنا في الفراش كنت أعيش لحظة نسيان لا يتبقى منها شيء في روحي. لم أفهم أبدا السبب. وبعد فترة كففت عن التساؤل. ثم إن الأمومة تلقي بظلالها على كثير من الأشياء. فقط أيام نيس كان بها شيء مختلف. حتى زوجي أعتقد أنه كان يجدني جذابة. أذكر كيف كان يفاجئني بأحضان وقبلات على غير توقع وأنا أقرأ في كتاب أو وأنا في المطبخ. كان هناك شيء إنساني في علاقة جسدينا في تلك الفترة. ثم انتهى السحر بعد عودتي إلى مصر.

أمام مرآتي وجدت جسدا غير محبوب. لم يترك أحد آثار يديه عليه. بدوت كزهرة ذابلة تلفظ رمقا أخيرا بانتظار قطرة الحياة. ارتديت قميص النوم الأبيض ذي الورود الصغيرة اللبنية فبدوت كتلميذة من أفلام الستينات. جمعت شعري الطويل في كعكة فأصبحت أكثر نضارة. دق الباب. جفلت. "مين؟" كان طارق.

مددت يدا عمياء إلى الدولاب أبحث عن الروب. وجدته بعد صراع مع الملابس المعلقة. نسيت أن أضع الطرحة على رأسي، لذا ظل نظره معلقا بوجهي بعض الوقت عندما فتحت له الباب. جلس على الفراش دون استئذان. كان وجهه خاليا من أي تعبير. وبدونا محرجين من وجودنا هنا معا.

قال لي وهو يخرج ورقة مطوية من جيبه إن العميد يريد تقريرا جيدا ولكن يجب أن يكون واقعيا. "دي قايمة النواقص مش هنقول غيرها." وضع الورقة على السرير. "هنراجع تقاريرنا مع بعض. ومتنسيش لازم ننسق أقوالنا في الاجتماع العام."

كنت أهز رأسي وأتلفظ ما يكفي لأن يعرف أنني موافقة ومطيعة وأنني ألعب معه في نفس الفريق.

أضاف فجأة "الدكتورة ليلى معجبة بك. وعندها ليكي مفاجأة السنة الجاية." نهض واقترب مني أكثر من اللازم وقال "تحبي تعيشي في إسكندرية؟" لم أقل شيئا سوى أنني أحب المدينة المتوسطية. "أنا اسكندراني زي ما أنت عارفة." لم أعد متأكدة من أي معلومات. كان يحدق في وجهي بشكل غريب. أعلن أنه سينصرف كي أرتاح. "تصبحي على خير".

تركني واقفة وقلبي يدق كطبول حرب. لو جذبني معه إلى القاع لكنت ذهبت بكل طواعية. انسالت دموع صامتة على وجهي. توضأت وصليت كي تهدأ نفسي وشعرت أن الله ينظر إليّ باحتقار.

استيقظت وأنا أشعر بنشوة طاغية. أغمضت عيني عدة مرات كي أقبض على الحلم الهارب. لكنه فر إلى غير رجعة. اغتسلت كما لو كنت قد مارست الحب بالفعل. كان شعورا غريبا.

كان العميد قد أعد لنا إفطارا مخصوصا. إفطار محلي. فطير مشلتت وقشدة وعسل وبيض مسلوق. كان يتحدث مع طارق بصوت هامس. يبدو أنهما وصلا إلى اتفاق يرضي جميع الأطراف. ما علي سوى البصم بالموافقة. جلست وقد غطيت شعري المصفف بعناية بإيشارب فاتح اللون أكد ألوان شعري التي تبرز من منبته. لم يعرني طارق كبير التفات. ما كنت إلا واحدة من رعاياه على هذه المائدة العامرة. شعرت لوهلة أنه زوجي. أقصد زوجي الذي أتمناه وليس الذي حصلت عليه.

طلبت الدكتورة ليلى من الجالس بقربي أن يفسح لها المكان. رحبت بها محاولة إظهار حماسة خاصة. أعتقد أنني كنت شاردة. أسكت صوت الموبايل لمعرفتي أن رندا حتما ستكلمني. طمأني ابني برسالة صباحية على الجميع. لا أريد أخبارا من العاصمة الآن.

ترددت في تناول الفطير المشلتت. جهازي الهضمي ليس قويا. ضحكوا وتمازحوا. قسم طارق فطيرته نصفين وأعطاني نصفا بيد حازمة، لم أملك إلا أن أتناوله. كان ثقيلا بشكل لا يصدق. أحيانا نتناوله خفيفا من السوبر ماركت، لكن هذا فطير مصري أصيل. أكد العميد أنه صناعة ريفية. أذكر أبي عندما كان يحدثنا عن ذكريات عمله في قرى ونجوع مصر. كان يحكي عن الكرم والطيبة والصبر. هل عُجن الفطير بكل هذا؟

الدكتورة ليلى كانت تحملق فيّ بشكل واضح وغير مفهوم. كانت امرأة قوية صوتها عال تبدو عليها أمارات الذكاء والقيادة. وأنا قلبي متعب من عاشقي القيادة. عشت حياتي مساقة إلى مسارات ما كنت لأختارها طواعية. أريد العودة إلى نقطة البداية، حين رأيت زوجي الوسيم (بل الجميل) لأول مرة في صالون بيتنا كي أقول لا. أريد أن أكمل دراستي وألتقي بطارق في منتصف الطريق. ونحب بعضنا ونتزوج ثم ننجب ابني. ونعيش في تبات ونبات.

لمحت لي الدكتورة ليلى أنها ستعمل جاهدة لتضع لي قدما في الإسكندرية. شعرت بزهوة الانتصار. أكدت لي أن الوسط الأكاديمي يقدر قدراتي وتميزي. حيرتني عبارتها لكنني أعرف قطعا أنني "شاطرة" في عملي، لكن من يعبأ بالشاطرين؟ طارق كان باردا تجاهي حتى ضمتنا سيارة العودة.

كان صامتا معظم الطريق، يفكر. شعرت أن الشرك ينسحب من تحت قدمي. لم يعد يحتاج إليّ. لقد أديت دوري ببراعة ووقعت على "تقريره". مرت برأسي كل النساء اللاتي لا أعرفهن واللاتي سلمن قيادة عقولهن لرجل اشتهينه أو حتى أحببنه. هل نحن ناقصات عقل فعلا لهذا السبب؟

فتحت الموبايل لما شاهدت عدد الميسد كولز الكبير. توالت المكالمات زملاء زميلات رندا حتى حماتي. تحاشيت الكلام معها أمام طارق. ثم ظهر اسم نجوى. أصابني فزع كبير. لا أريد أن أكون غراب البين الذي ينقل لها الخبر. كانت تبكي بهستيرية. لم أقل لها سوى "استهدي بالله" "كل حاجة لها حل". رددت العبارتين كتعويذة لكن أنى للشر أن ينصرف. استعملت نجوى ألفاظا قاسية وخفت أن تصل إلى أسماع طارق. بدا عابسا. قلت لها إنني سأذهب إليها فور عودتي إلى القاهرة. أغلقت الخط فجأة وكأن قلبها توقف. ما فائدة الكلام؟ الكلام يشفي. كانت أمي تقول لي ذلك دائما. فضفضي وستجدين أن الحمل يخف. لذا حمل ابنتي يزيد لأنها صامتة.

لم يعلق طارق على المكالمة. ربما سمع النعوت التي وصفت بها نجوى زوجها الخائن. سألته كم تبقى لنصل.

"أنت مستعجلة؟"

تعلثمت في الإجابة. الأولاد. البيت. واحدة صاحبتي (أخفيت اسمها). لم أقل جملة مفيدة على ما أظن.

"أنا نفسي منوصلش أبدا. عايز أفضل معاكي على طول."

أظن أنني توقفت عن التنفس لفترة أطول من اللازم لأنني فتحت فمي بعدها كي أدخل مزيدا من الأكسجين لصدري المختنق. التزم كلانا الصمت. هبط الصمت علينا كرصاص أغلق فمينا. حتى الموبايل كتمت صوته وظللت أحملق في فلاشه كلما جاءت مكالمة. كنت أتنفس بصعوبة لباقي المسافة إلى القاهرة الحبيبة.

ورقة وداد رقم اثنان

ما زالت وداد تقرع أبواب أبناء الحلال. تحتمي من وحش الجوع الذي يهدد صغارها. الطفل الرابع قد وصل وطبول الحرب تقرع. السلطان يجوب المدينة سرا يبحث عن المخالفين ليشنقهم. زوجها ترك القاهرة هاربا إلى الأرياف. وعد بالعودة. ووداد وحيدة تجر صغارها في شوارع باتت شبه مقفرة. الرجال غادروا إلى حرب في بلاد بعيدة، وهي تحتمي ببقايا إنسانية هنا وهناك. تخرج برفقة الكبير في النهار. يبتعد عنها الرجال العجائز الذين تبقوا بعد أن فرمت مفرمة الموت الشباب. يوسع لها محمود الكبير طريقا لا تكاد تتسع لجسدها المنهك. تشكو همها للنساء الثكالى. يحملنها هموهن فتعود إلى بيتها الصغير وقد ضاق عليها أكثر.

القاهرة (حريق)

استقبلتنا القاهرة بسحبها المثقلة بالدخان الأسود وزفرات الحزانى. كنت أشعر باختناق حقيقي. طارق بدا حلما وهو يقود السيارة وسط زحام العصر. أوصلني إلى البيت ودعوت الله ألا أصادف أحدا أعرفه وأنا أترجل من السيارة. اكتفينا "بالسلام عليكم" "وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته". نطقنا العبارتين بطريقة نستحضر فيها حالة وقار لا أعرف كيف نستعيدها.

دلفت من البوابة الحديدية وصوتي الداخلي يصرخ لماذا قال ما قال؟ كنت منهكة لكنني تحاملت على نفسي وسط الفوضى كي أهرع إلى نجوى. أتاني صوت والدتها يبكي ولم أفهم سوى أن نجوى هددت بالانتحار وأغلقت عليها باب الحمام. غيرت ملابسي بسرعة. استأذنت زوجي في الذهاب إليها ولما عرف السبب لم يعلق. ترى أين موقعه من هذه الجريمة؟ ترى هل أكون التالية؟ ابنتي كانت هناك. شيء ما في عينيها كان يقول شيئا لم أفسره. طلبت منها الاعتناء بأخيها حتى عودتي. لا أظن أنه يحتاج إلى عنايتها، لكن المسئوليات ستعيدها إلى عالم الأحياء من وقت لآخر. ربما تنجح في إفاقتها. زوجي قرر أن يعهد إليها بعمل في إحدى شركاته بالصيف. وأعلنها مدوية أن النقاب خارج الموضوع، بل إن العبايات ممنوعة. كان الوحيد بيننا جميعا السعيد بدروشتها، لكنه كان يضع حدودا لذلك. كما كان يقول مرارا "على الأقل نطمن إنها مش هتغضب ربنا أبدا." حرصه على عدم إغضاب ابنته لله كان يثير في مرارة سكنت صدري منذ تزوجنا.

بيت نجوى كان مزدحما كسوق في أوج نشاطه. رأيت من أعرف ومن لا أعرف. أما بطل الرواية فكان غائبا ولو أن الجميع قد قطعوا فروته حتى صار غير مكسيا على الإطلاق. نجوى كانت شبه غائبة عن الوعي بعد أن عاجلها الطبيب بحقن مهدئة ووصف لها المزيد من المهدئات. مسكينة نجوى عليها مواجهة أشباحها وحدها.

قالت أمها من خلال دموعها التي لم تجف طوال زيارتي "فضلت تقول النار يا ماما مين يطفي لي النار. مبطلتهاش أبدا"

شاركتها دموعا غزيرة. كنت أبكي نجوى ونفسي وابنتي. وظل طيف طارق يحوم حولي محاولا حمايتي من هذا الجحيم. رندا كانت عابسة غاضبة. تطلب معاقبة المذنب. البنت الكبيرة ظلت محتضنة أمها وهي نائمة. الصغيران كانا هادئين بشكل لم أعهده فيهما من قبل. أما الزوار الآخرون فقد توزعوا ما بين تعاطف حقيقي وتعاطف مشوب بالتشفي والفضول. شعرت بغربة شديدة، وحاولت تخيل ما قد أفعل إن كنت مكانها.

أوصلت رندا إلى بيتها. دعتني للصعود. لم أرفض. بيت رندا يختلف عن بيوتنا. ليس عندها نيش مثلا في غرفة الطعام. لديها مساحات أوسع. الكتب تحول في بيتها بحرية. جلسنا على كنبة عريضة. خلعت الإيشارب. انسدل شعري كثيفا ملونا حرا على كتفي.

"اتخنقت النهاردة. كان يوم طويل."

كنا نحاول البحث عن مرفأ أمان. لم أعرف من أوصل الخبر لنجوى. قالت لي رندا إنها دخلت في مشادة مع الزوج "أستاذ الجراحة المحترم." ويبدو أنه عرف أنه لا سبيل أمامه سوى إعلان الخبر. فنشر الخبر في عائلته التي سارعت بنقله إلى عائلة نجوى.

"كانت ناوية تعمل عمليات شد وتجميل في لبنان بعد أسابيع."

"فاكرة يعني إن ده يمنع الخيانة؟"

"هي الخيانة هي الحب ولا الزنا ولا الجواز؟"

"كلها خيانة. الكوبل يعني ثنائي. لا ثلاثي ولا رباعي."

"بس ربنا حلله."

"الله عادل ولا يدعو إلى ظلم."

"يعني الأفضل إنه يسيب الست اللي بيحبها عشان مراته؟"

"دينا، أنت فعلا مصدقة إن حضرة الزوج المحترم رب الأسرة وقع في الغرام والهيام؟ مش معقولة يا دينا. وعلى فرض إن ده حصل. هل تعدد الزوجات هو الحل. أقصد الصفقة بتاعة أقدم مهنة في التاريخ دي هي أفضل حل توصل له راجل في منتصف العمر ومسؤول عن أسرة؟"

"يعني أنت يا رندا مش ممكن تقبلي تتجوزي واحد على مراته حتى لو بتحبيه؟"

راندا تضع ساقا على ساق وتحملق بوجهي. أشعر بسخف مقولتي. أكاد أعتذر لكنها تجيب على سؤالي

"عارفة كام عرض اتعرض عليا عشان أكون الزوجة الثانية؟ عارفة كام راجل بيبص لي على إني مدخل لعلاقة مش مكلفة وبرضه ترضي غروره؟ أنت عارفة إن معنى الاخلاص مختلف تماما ما بين الراجل والست في بلادنا."

"يعني أنا أكون ايه... أقصد تصنفيني ازاي لو أعجبت براجل غير جوزي؟ تعتبريني خاينة؟"

"الإعجاب بيه كراجل ولا الإعجاب بيه كإنسان؟"

"الإعجاب به كراجل يشاركني الفراش وأفضي إليه ويفضي إلي."

"طبعا خيانة يا دينا."

عندما يأتي الحكم من رندا أعرف أنه صحيح وسديد. في الليل غرقت في نوم مضطرب. شعرت بزوجي يحاول إيقاظي. احتميت بالوسادة الضخمة وابتعدت عنه قدر الإمكان. كان الاستسلام له خيانة لقلبي الآن.

الأيام التالية حملت ريح السموم لنجوى. انتشر الخبر في الكلية كما تنتشر الأوبئة. أوكلت باقي محاضراتها لي وقدمت على إجازة مرضية. لقد كانت مريضة حقا. رندا اشتبكت في مشادة كلامية مع أحد أعضاء مجلس القسم. بدأ الخلاف طفيفا ثم انتشر كالنار في الهشيم. رندا قدمت شكوى للعميد وطلبت رفعها إلى رئيس الجامعة. كان العالم يسير على حافة الهاوية وشعرت أنه لم يعد لي مكان وسط الناس. أرسل لي طارق "أس أم أس" ذات صباح غائم "لو كنت في الكلية تعالي إلى مكتبي الآن."

كان متجهم الوجه جاد النظرات. أخبرني أنه على موعد مع نائب رئيس إحدى الجامعات الخاصة الأجنبية. طلب مني أن نذهب إلى الموعد سويا. أوضح لي الأمر في السيارة باختصار ونحن جلوس على المقعد الخلفي. السائق الصامت المهذب كان يقود بتؤدة السيارة المريحة على أسفلت القاهرة الحار. الرجل طلب منه ترشيح عضو هيئة تدريس للأدب الفرنسي.

"ليه مقولت ليش قبل كدة؟"

لم يعطني جوابا. طارق هو نوع الدكتاتور الذي أحبه. يعمل لصالحي وليس ضدي. فجأة تذكرت زوجي. لن يوافق بالتأكيد.

القاهرة مدينة الألف مئذنة فتحت قلبها منذ شيدها الحلواني مدينة حلوة، أما للدنيا، للقاصي والداني. مدينة دافئة بشوارعها وحواريها ونيلها الذي يقطعها بحنو. مدينة نشطة مرحة نهارا وديعة ليلا. القاهرة عندما خطتها يد القائد الصقلي الذي عبر المتوسط كي يشيد هذه الدرة كانت وعدا تحقق للدنيا بأسرها. لم تعط ظهرها لطيبة لكنها أكدت مكانتها. قاهرتي أحبها منذ ولدت بها ومنذ هجرتها إلى الأطراف بحثا عن متنفس لي ولأسرتي. انتقلنا إلى فيلتنا الفخمة من أكثر من عشر سنوات. كان ابني وليدا وقد كان ذلك تتويجا لنجاح زوجي في عمله. حماتي – لابد أن أذكرها هنا – كانت تتبع خطانا بسوطها القاطع. ترى أنني أتطفل على إنجازات ابنها. لا تجد لي أدنى مشروعية في حياته. لقد حاولت كثيرا الإجابة على هذا السؤال، لكنني فشلت للأسف. لم أنس القاهرة "القديمة" وظلت نفسي تهفو إلى شوارعها وروائحها.

استقبلنا استقبال في آي بي في مكتب نائب رئيس الجامعة. كان طارق متمكنا من أدواته. لم أعرف أن له كل هذا النفوذ. إنه صانع قرار. وما أنا إلا إحدى رعاياه وعبد من عبيد إحساناته. كان محايدا معي بشكل واضح. لكن أثناء الحديث مع المسئول تكلم بلغة الفريق. كان متحدا معي بشكل معنوي. اهتم كثيرا بالصفقة التي ستنقلني في مهنتي إلى مستوى آخر.

بعد اللقاء، الذي انتهى على موعد لمناقشة تفاصيل العقد، قال لي طارق بما يشبه لهجة الأمر "اوعي تسيبي الموضوع ده يفلت من ايدك. ده هو اللي هينقلك للمستقبل الحقيقي لأعضاء هيئة التدريس."

أضاف بعدها بلهجة غريبة "عايزة أطمن عليكي."

في السيارة لامست ساقه جسدي أكثر من مرة. أعرف أنه تعمد ذلك وشعرت بالضياع التام.

الابنة ما زالت غارقة في سوداويتها. وصلتنا رسالة من المدرسة احتجاجا على رفضها المشاركة في حصة الألعاب.

هز أبوها كتفيه وقال "هجيبلها إعفا."

وعلق أخوها "اللي يلعب رياضة بنفسه ينفع نفسه."

التزمت الصمت التام. كانت تنظر إلينا وكأنها تتفرج على جبلاية قرود وإن تصنعت الهدوء. لم أعد أذكر آخر مرة رأيت ابتسامتها أو سمعت ضحكتها. ازداد جسدها نحولة وأصبح لجلدها لونا غريبا كالحا. كانت ترتدي ملابس فضفاضة قديمة طوال الوقت، رغم انصياعها لأوامر والدها بالالتزام بيونيفورم المدرسة. كانت تغطي شعرها في البيت حتى نسيت كيف يبدو. بل لقد أصبحت عجوزا. ولم يعد أحد يلحظ وجودها. كانت تأكل في صمت، تدرس في صمت، ثم تقضي باقي الوقت في الصلاة وقراءة القرآن. لم يعد لها صديقات. الكل هرب من حولها. لم يعد لديها ما تمنحهن إياه.

دخلت الغرفة الصامتة. وجدتها على السجادة ممسكة المصحف. كانت تقرأ في صمت. جلست بجوارها لم تحرك ساكنا حتى أنهت الصفحة. نظرت إلي.

سألتها "مش كنتي بتعشقي الجمباز وكان نفسك تفضلي في البطولات؟" قالت إنها كانت صغيرة. "ودلوقتي بقيتي عجوزة؟"

رندا ركبت رأسها وتريد المضي في الشكوى رغم الوساطات. أخذتها قسرا في حالة من الحالات النادرة إلى مكتب طارق. تمكن من إقناعها بأنه كفيل برد حقها وأن سحبها الشكوى سيجعل الزميل أسير جميلها والعميد سيقدر لها أنها كفت مأجورا على الشوشرة. لم أتصور أحدا قادرا على إقناع رندا بشيء قدر تصوري لطارق. قدم لنا قهوة وشاي. وبدأ الاثنان يتكلمان. فجأة اكتشفت أنهما يضحكان معا وأنني لست طرفا في الحديث. شعرت بوخزة غيرة حادة. حاولت إمالة دفة الحديث نحوي. كان طارق مأخوذا بما تقوله رندا التي تفوقني في الاستحواذ على آذان سامعيها في حين أبحث أنا عن الكلمات طويلا. استأذنت منهما قبل أن يريا دموعي.

طريق العودة إلى البيت كان مفروشا بالأشواك. الصرخات في صدري تحولت إلى دمع غزير. فسد مكياجي المتقن كله واضطريت للوقوف عدة مرات لإزالة الأصباغ المتداخلة. تمنيت لو كلمني فقط كي أطمئن أنه لم يطردني من جنته. كم أنا غبية! رندا حرة وجريئة وطارق حر وكأن هناك رجلا غير حر! أنا لست غبية، رندا عندها مبادئ. لن تدوس على صديقتها. لقد بدأت أهذي. ليس هناك عهد بين الصديقات خاص بالعشيق. هل طارق عشيقي؟ أبسبب ذلك الحلم؟ طلبت من أختي أن تقضي الأمسية معي. كنت أحتاج إلى شخص أستطيع أن أثق به.

كلمني طارق ونحن نتناول العشاء. احتضنت الموبايل بكلتا يدي وجريت إلى الغرفة. كان صوته خافتا ويتحدث ببطء. لم أهتم بما كان يقول قدر اهتمامي بالحدث نفسه.

سأل "أنت كويسة؟"

سأل أيضا "خلصتي الملف؟ مفاضلش غير يومين على الميعاد." كان حنونا وهادئا.

سألته "مشكلة رندا خلاص انتهت؟"

أعتقد أنه ضحك أو ما شابه "أنت عبيطة فعلا."

"ايه؟"

"أنت مش عارفة إني بحب؟"

احمر كل جسدي وشعرت بالنار تصعد إلى عقلي المنهك.

"بتحب مين؟"

"بحب اللي بكلمها دلوقت."

حاول زوجي أن يمارس معي الحب. رفضت بكل الطرق.

أمسك بيدي وقال لي "بترتعشي كدة ليه؟"

كنت أغرق في لجة لا أعرف كيف أصارعها. هذا الفراش ليس لي، لم يعد لي. هذا البيت يميتني. أريد أن أنجو مع ابني من هذا العالم. أريد أن أعيد لابنتي حيويتها. أريد أن أستعيد زوجي الذي عاش في قلبي سرا حتى تجسد رجلا. لا أريد أن أكون خائنة. لا أريد أن أكون زانية. فلنمحُ معا الزمن الماضي وسنكون سعداء.

ورقة وداد رقم ثلاثة

وداد تتوسل بالسيدة زينب كلما قدرت. تحبها وتحب مقامها. في ذلك الصباح انهارت أمام المقام مع رضيعها. محمود برفقتها دائما والصغيران الآخران عند الجارة الضريرة. لم تعد تنتج الغزل. والقاهرة مكتومة الأنفاس بانتظار أخبار الحرب. والسلطان لم يعد يخرج إلا لماما.

القاهرة (حَرْ)

قضيت عصر الجمعة عند حماتي كما هي العادة. أوصتني ماما بالصبر في مكالمتها التلفونية. وأتت مكالمة طارق في الوقت المناسب. كنت وحدي في البيت مع الشغالة الفلبيبنية التي تأتي يوم الجمعة فقط. الآخرون كانوا بانتظاري في السيارة. أغلقت خلفي باب المكتبة. وجلست في مواجهة الشمس. خلعت الإيشارب الذي كنت على وشك تثبيته. أول كلمة قالها بعد أن قلت ألو "بحبك". كررها لا أعرف كم مرة. ارتويت بها وشعرت بعمري يعود قويا معافا. لم أقل سوى "أنا رايحة عند حماتي."

"هي طيبة معاكي؟"

"جاوب أنت على السؤال ده بنفسك."

كان حاجز الخوف ينهار تدريجيا ولم أعد أخشى السقوط. أخبرني ببرنامجه ذلك النهار. طلب مني الاتصال به حين يكون الوقت مناسبا. شعرت بالإثارة.

قلت له "نفسي أشوفك."

ثم جاء السؤال الذي صار روتينيا. وكانت الإجابة "لا". سمعته يتنهد. أغلقت الهاتف وقد اضطربت معاييري كلها. إنني أؤكد له كل يوم أن زوجي لم يمسني.

في بيت حماتي خيم علينا توتر شديد. حاولت مناكفتي كالعادة. بناتها كن هناك مع أسرهن يتفرجون معظم الوقت على ابنتي. الصديقة الوحيدة لي في تلك الزمرة الأخت الصغرى قالت لي إن ابنتي محسودة. "بصي لها ملكة جمال." كانت تلك حقيقة مخيفة فقد ورثت ابنتي جمال أبيها وتركت نصيبي. اقترحت أن نرقيها. "مش هتخسري حاجة وآهو قرآن." منة كانت تذوي بين يدي ولم أكن أحرك لها ساكنا.

في المساء طلبت من طارق المشورة. استمع إلى كل التفاصيل. زوجي كان قد خرج في مغامرة ليلية. طرح علي أسئلة لم يطرحها أحد من قبل.

قال لي "لما شخص بيمر بتحول حاد في سلوكه. عشان نعكس التحول ده لازم يمر بنفس التحول لكن في الاتجاه المعاكس. مش هينفع تحاولوا تغيروها مرة واحدة بين ليلة وضحاها."

"دي مبتتكلمش مع حد خالص. مبتتجاوبش مع أي محاولة تواصل مع أي حد فينا."

"طبيعي، لأنها رافضاكم كلكم."

"طب أعمل ايه؟"

وعدني أن يرشدني خطوة خطوة ونرى النتيجة. كان من رأيه أن الرقيا الشرعية لن تضر بل قد تنفع.

لقاؤنا الأول بعد الاعتراف بالحب كان مخيفا. ترددت في دخول مكتبه مرتين، بل وكدت أعود أدراجي. لكنه موعد نائب رئيس الجامعة الخاصة ولا يمكن أن أتخلف عنه. ناداني وأنا أهرب. عندما دخلت مكتبه أخذني في حضنه سريعا ثم أفلتني. انهرت على الكنبة وتوسلت إليه ألا يفعل ذلك ثانية أبدا. شعرت بحريق يأكل صدري وكل جسدي وظل هذا الإحساس القاهر مسيطرا على كياني كله حتى وصولنا إلى المكتب الفخم على أطراف القاهرة.

التزم طارق بسلوك حيرني تماما. كان يحدق في بشكل واضح وشعرت أن كل من مررنا بهم بما فيهم السائق الصامت يعرفون أننا ساقطين. بدأ غضب غامض ينمو داخلي ويزداد اضطرابي كلما اقتربنا من مقصدنا. أفهمني في السيارة بعض النقاط القانونية.

سألته ونحن نترجل من السيارة "أنت ليه حريص اوي كدة على إني آخد الوظيفة دي؟"

قال لي في حدة "دي مصلحتك ومش هكون أحرص عليها منك."

شعرت بقلبي يتجمد فجأة وأنني أموت. رأيت وجها آخر لتعالي الذكر. وأنا أمد يدا مهذبة إلى نائب الرئيس فكرت أن كل الرجال خنازير يرتدون البذلات الرسمية. تقمصت شخصية رندا للحظة. ولما فكرت فيها لم أجد ما يمنع من لقاء بينها وبين الطاغية الذي جرني إلى هنا.

كان عرضا مغريا. ربما كان الحلم الذي كنت أنشده. قمنا بجولة في القاعات وبعض المكاتب. شرح لي نائب الرئيس بشكل عام نظام التدريس وأعطاني مهلة زمنية لإعداد المنهج. كنت قد قدمت منهجا من مناهجي التي درستها بالفعل. وشعرت أنني أخطأت بالتوقيع قبل الحصول على موافقة زوجي. وتحسبت للأسوأ.

في طريق العودة لا أذكر أن طارق قال أكثر من مبروك حيادية جدا.

وقبل أن يتركني على باب قلعتي هاجمته قائلة "متحاولش تاني أبدا اللي حصل منك في المكتب. مفهوم؟"

نظر في عيني وقال "وأنت كمان متحاوليش."

في البيت بدا لي كل شيء مقلوبا رأسا على عقب. قضيت بعض الوقت مع ابني في غرفته. أراني بعضا من رسومه الكاريكاتورية. يحب أن يعبر عن نفسه بتلك الطريقة الخلاقة. كان يحكي عن مدرسته، أصحابه، لاعبي كرة القدم، أعضاء النادي. كراسة رسومه بدت لي قطعة من حياته وشعرت بالفخر. لعبنا فيفا التي يعشقها حتى موعد العشاء. اتصلت بنجوى. كانت مكسورة وغاضبة. قررت أن أبتعد عن مسار طارق قدر الإمكان. سأنسحب من اللجنة. مالي والسياسة؟ فليحبني كما شاء. أنا زوجة مخلصة. اتصلت بي رندا ولم أرد. لم أكن أكرهها في هذه اللحظة قدر كراهيتي لكل الرجال. ثم حضر رجلي. استسلمت له وحاولت الاستمتاع برحلتنا الليلية على ضفاف الشبق. أتاني الأورجازم بعد وقت طويل مع نوبة بكاء حار. ترك لي زوجي الفراش ولا أعرف أين بات ليلته.

كنت منهكة من كل شيء ولم يستطع حنان ماما وكلماتها البلسم أن تشفي أيا من جروحي. احتميت داخل أزمة ابنتي كي أخفي أزمتي أنا. تذكرت ساخرة وعده لي بمساعدتها على العودة إلى عالمنا.

"جايز عندها حق يا ماما. مش عارفة. الدنيا فانية في النهاية. واحنا زي الفيران في المتاهة."

لامتني أمي على هذه الأفكار وقالت لي "الأم تقدم الأمل لبنتها وعمرها ما تنزعه أبدا حتى في أحلك اللحظات."

تذكرت مشهدا من فيلم تايتنك. السفينة تغرق والأم تقص حدوتة قبل النوم لصغيريها حتى يدخلا رقدتهما الأخيرة بسلام. هل علي إذن أن أتحلى بشجاعة اليائسين؟

الرقيا الشرعية لم تلق الاستحسان الذي تمنيته. أتت أختي الطيبة كي تعينني على ما أنا فيه. كانت الابنة منقادة لما نفعل. شربت الماء الذي قُرأ عليه القرآن. كانت تحاول أن تكون مهذبة مع خالتها لكنها ما زالت غائبة عن الوعي.

مدير المدرسة تحدث مع زوجي الذي ذهب لدعم موقف ابنته وطمأنه أن أداءها العلمي ممتاز لكنها منطوية جدا. ابن عمها الذي يصغرها بسنتين قال لي من أيام إن منة هي أجمل فتاة في العالم. وهي صغيرة كانت النساء يطلبن مني أن أبخرها وأحيطها بالخرز الأزرق. وكنت أبتسم غير مقتنعة حتى أصابتنا هذه الضربة. حماتي تؤكد أن الابنة لم تجد أما تحنو عليها.

بعد الرقيا ساد جو من الصمت في البيت. كان نهارا ربيعيا خانقا. فكرت أن طارق ورندا لابد وأنهما معا الآن. فكلاهما ينهي محاضرتيه في مثل هذا الوقت تقريبا.

خرجت مع نجوى إلى مكاننا المفضل في مصر الجديدة. شعرت أنها تريد استعادة شيء من حيوية الشباب. عشنا للحظات مع أيام ماضية كانت أقل قسوة وأكرم وعودا. نجوى ذبلت تماما. رأيت الكثير من الشعر الأبيض يطل من تحت حجابها. كانت منكسرة رغم الغضب. قررت أن تذهب إلى لبنان رغم كل شيء. أيدتها على ذلك. قالت إنها لن تطلب الطلاق. لم أجد قولا سديدا أربأ به الصدع. لكنني شعرت أنه لم يعد لي أحد في هذا العالم.

اتصل بي طارق يومها كي يذكرني باجتماع اللجنة ويؤكد أن كلامنا لابد وأن يكون متناسقا ومتحدا. استمعت إليه متمتمة بـ"آه.. أيوة.. طبعا.. أكيد" طارق يحب الرعايا المخلصين. وأنا غبية وقعت في غرامه. عبارته التي حرقت أسماعي من أيام لم تعن سوى لعب بالكلمات. كنت متأكدة أنه كان مع أخرى وهو يكلمني. ليس بالضرورة أن أكون معنية بهذا القول الطائش.

رندا تنازلت عن الشكوى. قصت شعرها قصة حديثة. صار أقصر وأنزلت غرة كثيفة على جبينها. بدت من عصر آخر غير عصرنا. كثيرون كانوا يسألونها من أين هي. رندا امرأة قوية ذكية نضرة. غير مترددة غير خائفة غير مهزوزة. كانت تكمل عباراتي المبتورة، تنطق بأفكاري المخفية. الآن أشعر أنني أراها من موقع مختلف. شعرت بقلبي مكسورا حزينا. سألتني عن غيابي. قلت لها المحاضرات الزائدة البنت ومشاكلها الزوج وتحكماته. أمراض لا تصاب بها مثيلات رندا.

"بنتك حلها إنها تخرج من عزلتها."

"تعالي خرجيها أنت لو كنت شاطرة."

سئمت من حكمة الحكماء وحلالي العقد. يتحدثون من مواقعهم المريحة ولا يقبضون على أي جمر. ربما شعرت رندا بعدوانيتي. ربما تسأل نفسها عن نوعية الصديقة التي أمامها. أنا نفسي أصبحت أنظر إلى نفسي في مرآة مشوهة. كنت أبكي كثيرا في تلك الأيام.

بدأ الحر. شعرت بملابسي وكأنها طبقة من حراشيف يجب أن أتخلص منها حتى أتنفس. اصطحبت ابني إلى النادي وجلست وسط الأمهات. كنا صفوفا من نساء تحت طبقات عريضة من الأقمشة. لم أكن معترضة على الحجاب كفكرة، لكنني لم أكن سعيدة به في هذا الحر. لا أعرف إن كان هناك حل لهذه المعضلة. لكنه بالتأكيد لن يكون خياري الحر. بعث لي أحد الأساتذة برسالة فيها دعاء وطلب نشر للأصدقاء.

قرأت في المصحف صباحا قبل الخروج طلبا للرزق والبركة. كنت أريد إبعاد الشر. نقعت الأرز وأعددت اللحم الذي يحبه زوجي للغداء. تركت رسالة توضيحية لابنتي في المطبخ. والدها سيمر عليها في المدرسة اليوم. أصبح منخرطا تماما في قصة المدرسة وشعرت أن هناك عشيقة جديدة. لم أكن أعبأ كثيرا. جتتي نحست. لم أعد أشعر بضربات السوط من كثرتها.

كان المجتمعون منقسمين إلى مجموعات ثنائية وثلاثية ورباعية وأكثر. لم أر طارق للوهلة الأولى، ثم أتاني من الخلف. حاولت أن أكون رسمية قدر المستطاع. كانت في عينيه نفس النظرة التي لا أفهمها. مزيج من القسوة والشوق والعتاب والكراهية. لم أجلس قربه إلا أنه طلب مني علنا أن أجلس بجانبه. كانت رائحة عطره نفاذة لدرجة أنها خنقتني تماما. ظللت طوال الوقت أمسك ياقة قميصي العالية كي أبعدها عن رقبتي طلبا لمزيد من الهواء. الرئيس كان واضحا. سنساعد الجامعات على أن تتطور وأن تحصل على الاعتراف المحلي، لكننا لن نكسر مجاديف أحد. النقد البناء هو المطلوب. النقد البناء بتعريفه الرسمي. طارق كان مفوها. عرض ملخص الزيارة. لم أعرف كيف وازن بين واقعية الطرح والالتزام بتعليمات الرئيس. شهادتي أنا بدت باهتة بعد حديثه. في العادة أتكلم أفضل من هذا، بل أجيد الخطابة بلغات مختلفة. لكن شعوري بالاختناق كان شديدا.

نزلت إلى الشارع مسرعة محاولة تجنب الحديث إليه. قررت الاتصال بالرئيس معتذرة عن شرف إكمال واجباتي في اللجنة. جلست خلف المقود وبدأت الاتصال به. حين طل رأس طارق من النافذة. "هربانة على فين؟"

ضغط أصبعي بشكل لا إرادي على زر الهاتف الأحمر منهية الاتصال. فتح الباب المقابل ودخل دون دعوة. إنني أسقط ثانية.

حدثني عن زوجته الأولى. أول مرة أعرف أنها كانت مصرية وليست أمريكية. كانت حياتهما جيدة لكن تدخلات أهلها الدائمة أفسدت زواجهما الذي لم يستمر لأكثر من أربع سنوات. لم أتصور أحدا قادرا على إدارة حياة طارق سواه. لماذا لم يتزوج ثانية؟

ابتسم في سخرية "هو اللي يعملها مرة يعملها تاني؟"

تجاهلت السخرية وقلت له صادقة "أنت هتكون زوج رائع."

سدد نحوي نظرات بدت لي وكأن حكمته تستوعب حيرتي وخوفي. تحدث عن الزواج كمشروع يجب أن يكون ناجحا. "لو الزوج والزوجة مكانوش فريق واحد، الحياة تتحول لصراع يدمي الطرفين."

وكأنه يصف حياتي الحالية. هناك شيء ما ظل مفقودا طوال الوقت بيني وبين زوجي. أحيانا كنت أسميه الحب، التفاهم، التواصل... كل العبارات التي نستدعيها من البرامج التلفزيونية وكتب الحياة الزوجية السعيدة، مفاهيم تشوش على الأسباب الحقيقية. ما ضاع مني ومن زوجي من البداية هو الهدف المشترك. أهدافنا متنافرة متباينة. كل منا يبحث عن راحته في واحة بعيدة عن الآخر. طارق لم يهتم كثيرا بما يدور بيني وبين زوجي. تعامل معه على أنه حالة مزمنة عليه التعايش مع وجوده. كان يحبني ولم يكن ينوي وضع هذا الحب في أي إطار مقبول أو غير مقبول. كان يريدني أن أبقى على جانب الطريق الذي يسير فيه وكفى.

اتصلت بي رندا في المساء وطلبت مني الذهاب إلى ندوة توقيع كتاب لصديق لها. عرضت الفكرة على ابنتي. سألتني عن الكتاب. مجموعة قصصية. ردت "علم لا ينفع." قلت لها أن تقدم لي معروفا. هزت كتفيها ولم تحسم الأمر. كان زوجي يعمل في مكتبه وابني يشاهد فيلم ذا ترانسفورمرز. دخلت إلى غرفتي وفتحت التلفزيون. كان فيلم دعاء الكروان. تفرجت عليه حتى النهاية وذرفت نفس الدموع التي أذرفها دائما عندما أشاهده.

الكاتب شاب في بداية الثلاثينيات، يطيل شعره الأسود المموج ويرتدي نظارة طبية بلا إطارات. رندا كانت تربت على كتفيه مشجعة وتتحدث عن كتابه بحماس مع الناس. كان شابا ذكيا مثقفا مبتسما. تمنيت لو تقع ابنتي في حب واحد مثله ينتشلها من القاع المظلم. لم ننفرد ببعض كثيرا في تلك الأمسية التي استمعت فيها لمقتطفات من الكتاب ومناقشة حوله. كانت القاعة ملئى بزوار هم خليط من المثقفين والأذكياء والتجار. كانت رندا مشرقة كعادتها وجريئة كذلك. وفجأة اكتشفت أنها صادقة، لا تكذب، لا تمثل، لا تدعي ما ليس فيها. ألا يريد منا الله أن نكون كذلك؟ كلنا نسعى لذلك ونسقط في براثن الخطيئة ونحاول الاغتسال من دنس سواءاتنا بطرق لا تزيدنا سوى دناسة. فكرت أن طارق هو دنس ومهما حاولت أن أحتمي بالسعادة التي أختبرها قربه، ستظل علاقتنا حراما.

حاول الفيلم أن يقنعنا أن خيانتها مشروعة لأن زوجها عجوز مستغل أناني. هل يبرر الخطأ خطأ آخر؟ هل خطيئة أحدنا تبرر خطيئة الآخر؟ كنت أبكي بحرقة على سجادة الصلاة. تذكرت لمسة طارق لي، تذكرت شوقي إليه، تذكرت رغبتي الدائمة في سماع صوته والاستزادة من حديثه، تذكرت أنني أفرح للقياه وأحزن لفراقه، وتذكرت أن الله غير راض عني. لا يهم من هو أو ما هو زوجي، المهم ما أفعله أنا. حيرتي بين نار وجنة لن تنقذني من عذاب الله.

ورقة وداد رقم أربعة

تمسكت وداد بشباك أم العجازى وطلبت منها المدد والعون. سارت متشحة بسوادها يسحبها محمود على الدروب الترابية. كانت الأصوات تحيط بها من كل جانب فتزيد من لوعتها وحزنها. جلست تتسول. حضر الجند. لكزوها وطلبوا من الولد أن يبعدها عن السوق. عادت بلا طعام. كانت تعلم أن الصغير يحتضر.

القاهرة (حَلْ)

غرقت نجوى في هيستريا ضاحكة لعدة دقائق. أثلج صدرها الخبر وأخذت تحكيه وتتندر عنه مرات. يبدو أن امرأة في مكان ناء من العالم قررت الانتقام من عشيقها الخائن بقطع عضوه. وهو عقاب بات مكررا ويبدو أنه حل مثالي للحسرة والألم في قلب المرأة وللعبث اللاإرادي لدى الرجل. نجوى وجدت ضالتها في ضحكات جوفاء بدت نابعة من صرخات مكتومة في صدرها أكثر من كونها تعبيرا عن تسلية أو مزاح. لقد عادت من لبنان ولم تتغير كثيرا. رفضت عرض زوجها بقسمة نفسه بينها وبين الزوجة الشابة.

"هو كان مكفي وهو واحد صحيح لما يكفي وهو نص؟"

كانت تتحدث عنه باحتقار وتتنبأ دائما بالانتقام الإلهي منه. حاولت كثيرا إقناعها بأن عودته للمنزل في صالحها، كي لا يأخذ قرارات في غير صالح الأسرة وهو بعيد عنهم. أخوات زوجها يضغطن في ذلك الإتجاه، بل ويتظاهرن بالتعاطف مع نجوى. لكن نجوى تغيرت، السخرية اللاذعة تغلف كل كلماتها، ترفض كل العروض والحلول. لديها خطة خاصة بها، خطة تستعيد بها عمرها المسروق. لقد عادت إلى العمل من أسابيع، وبدت أكثر ثقة بنفسها، بل بدت أكثر سعادة رغم أنها لم تعد تبدو شابة أو مليحة كما كانت.

غامرت بالحديث مع زوجي ذات مساء. سألته عن رأيه في سلوك زوج نجوى. ضحك ضحكة جافة وقال إنه زوج غبي.

"يعني لو نجوى دلوقت عرفت راجل تاني يبقى معليهاش لوم، صح؟"

أعتقد أن زوجي جفل أو تظاهر بذلك، وقال إنها تكون ساقطة. صمت. أضاف "ومين أصلا اللي هيبص لها وهي في السن ده؟"

كنا نلعب على المكشوف، على الأقل كنت أفعل. كانت المسافة تتسع على الفراش بيننا وشعرت بالعرق يتساقط بين كتفي. كنت متوترة وإحساسي بالخطر يتعاظم.

"أنت عارف إن الخيانة بتولد الخيانة زي ما العنف بيولد العنف. ونجوى عصبية ومجروحة." كان يعرف أنني لا أقصد نجوى إطلاقا. تشاغل بأجهزته اللامعة، عبث بالأزرار، كتب رسائل، قرأ فقرات. حاول تناسي ما قلت. "السن مبينفيش الإرادة. والجمال مسألة ذوق شخصي."

أدرت له ظهري ولأول مرة أشعر أنني انتصرت عليه.

دكتور عبد الفتاح كان من أشد المتحمسين للحضارة الإسلامية. كنت أحب الإنصات إلى أحاديثه. كان يقول لي أنت المرأة الوحيدة القادرة على هضم ما أقول. كان كثيرا ما يتطرق إلى مقولة أن الإسلام انتشر بالسيف ويقوم بدحضها بحجج معقولة كثيرة. كما كان يقتبس أبيات الشعر في طيات حديثه. كنت أنقل بعضا منها إلى ابنتي، كما أعتقد أنها كانت تقرأ ملازم وكتب دكتور عبد الفتاح من بين ما ندر أن تقرأ مما أعطيها إياه. لم اكن ألتقيه كثيرا، رغم ذلك، لبعد الهوة ربما بين أدب الفرنسيس وتاريخ لغة الضاد. طارق كان يحترمه مما جعلني أثق برأيي بالرجل وكأنما كنت أحتاج إلى صك موافقة من طارق كي أثق بأي إنسان آخر.

قضيت بقية النهار مع ابني في غرفته. فرجني على كليبات ومقاطع من أفلام تسجيلية مستقلة. بادلني أفكاره لتطوير الكون وإنقاذ البشرية. يثير عجبي وإعجابي هذا الطفل المقبل على الحياة بمعقولية وفهم، يستمتع بوقته مثل أي طفل لديه ميل طبيعي لكل ما هو مثمر وطبيعي ومنطقي. لم أبذل جهدا كبيرا في تربيته كل ما فيه كان ربانيا هدية حقيقية من السماء. كان يقول لي كل الناس يجب أن يعيشوا كما نعيش. معنى أننا نملك ما نملك أنه من الممكن أن يكون متاحا على نطاق أوسع وإمكانية توفره موجودة، أما لماذا لا يحدث هذا فمرده إلى أنانية صناع القرار مثل بابا. كان أحمد ابني محبا لأبيه ولم يكن يناقضه في تلك المعادلة التقليدية التي تجمع الابن بأبيه بل كان مختلفا عنه زمنيا، أحيانا كنت اعتقد أنه يسبقنا عصرا أو عصرين. كان يعبر عن نفسه معي بطريقة استوعبها بسرعة وإن أثارت حيرتي قليلا، أما مع أبيه فكانت لديه القدرة على الحديث معه بدون تصادم أو معاندة. زوجي كان يفخر برجاحة عقل ابنه وكان يدعي أن جيناته هي السبب. رغم أن ماندل قد أثبت من أكثر من مائة سنة أن الأم تورث لابنها أكثر من أبيه.

ورقة وداد رقم خمسة

وداد قضت الليل تجرع طفلها المريض منقوع الكمون والينسون التي تعطف بهما أهل الخير بمناسبة عيد الفطر. لم يكد الفجر يشقشق حتى بدأ الطفل يتنفس بعافية وعاد إلى وجهه لون وردي يدل على الصحة واستغرق في نوم العوافي أخيرا بعد أسابيع من معالجة الجوع والهزال وقلة الغذاء. شكرت وداد الله كثيرا من خلال دموعها وهي تقيم الفجر. واغمضت عينيها على أمل بدأ يكبر بعد معاناة طويلة. وحلمت أن الزوج عاد وأن الحي ظل مزدانا بزينة العيد طويلا.

القاهرة (حماة)

لا أملك أمرا حيال مشاعري. لم أستطع أبدا أن أحب حماتي أو أتقبلها في حياتي وإنما كانت دائما بالنسبة لي شوكة في الحلق وصداعا مزمنا. من رأي أمي أنني سهلت لها "قرش ملحتي" بتكرار تجرعي لكلماتها العلقم دون شكوى. في الواقع في بداية زواجي كنت مرتبكة وخائفة. كنت أريد النجاح في الماجستير والزواج معا. كانت أموال زوجي الكثيرة تثير خوفا غامضا داخلي من أنني فريسة استعباد من نوع ما. فأي انتقاد أو شكوى أو حتى إبداء ملاحظة كان يترجم على أنه رفس للنعمة وبتر. وكانت تلوح في الأفق كلمة فشل مغموسة بطلاق، وكان ذلك كفيلا بتأديبي بلا عناء.

كما أن علاقتنا غير واضحة المعالم على الصعيد العاطفي كانت تسبب لي قلقا طوال الوقت. لم تكن المسافة بيننا هي المسافة الطبيعية بين زوج وزوجة بل كنت أشبه بموظف مؤقت ينتظر الرفت أو التثبيت. وعندما طلبت تأجيل الانجاب حتى أنتهي من امتحانات التمهيدي، نظر زوجي إليّ كمن ينظر إلى مجنون. وحدث الحمل بعد شهور عانيت فيها من لسان حماتي الذي كان ينزل على عقلي مثل السياط فيسبب لي عذابا بطيئا أعتقد أنه كان يترجم بنظرة كلب حزين استقرت على ملامحي وقتها. كانت أمي تدعمني بمحاولة مد جسور التفاهم بين العائلتين حتى يحدث الاندماج الزوجي بشكل أسرع، لكن زوجي الفخور لم يكن يحتاج إلى إرضاء أحد خارج ذاته المتضخمة، لذلك سارعت أنا الخطى إلى الانجاب كي انتقل من فئة العبيد إلى فئة الاحرار، لكن شاء القدر أن تنبت البذرة الأولى متأخرة.

تجنبت لقاء رندا قدر استطاعتي. كنت أسمع من هنا وهناك عمن شاهدها مع طارق أو من التقاها في مكتب رئيس الجامعة وكذلك الدكتور طارق. حاولت التعامل مع قلبي على أنه ورم يجب استئصاله. حاولت الانشغال بالقراءة. بل وقدمت مقترحا لمؤتمر يُعقد في صوفيا. لم يتبق سوى أن أعثر على ضالتي.

اتصل بي طارق وأنا في المطبخ أعد كابتشينو لي ولزوجي. كنا نشاهد فيلما جديدا كوميديا. زوجي لا يتابع الأفلام ولا يهوي مشاهدتها، لكنه يحب أن يمهد أحيانا للقائنا الزوجي بهذه الطريقة التي تجعلني ألين. أتت المكالمة في الوقت الخطأ ولم أملك إلا الرد عليه. دخل زوجي المطبخ وأنا أتحدث والتصق بي بطريقة تمكنه من سماع ما يقال. أنهيت المكالمة ولم أكد أفهم شيئا سوى تذكير بموعد رئيس الجامعة الخاصة. كنت مرعوبة من أن يطرح طارق علي السؤال المعتاد الذي لم نكن ولم نعد نملك له حقا. في نهاية الليل قمت من الفراش وجلست وحدي على الكنبة الغارقة في الظلام وبكيت في صمت.

أول يوم لابنتي في شركة أبيها. لم أصدق عيني لما وجدتها ترتدي لونا لبني غامق. ورغم عبوسها الذي صار جزءا منها إلا أنها بدت شابة، ابنة الخامسة عشر، أو بالأحرى، بدت أقرب إلى الشباب منها إلى الفئة العمرية الغامضة التي كانت تنتمي إليها. لم تكشف ملامحها عن مشاعرها، لكنها بدت مطيعة ولينة. رفضت ارتداء الحلي التي اقترحتها وما كان لي أن ألح. وقف الاثنان يودعان الأسرة بطريقة رسمية بدت مضحكة بعض الشيء. منة لم تقل أكثر من السلام عليكم وفجأة اكتشفت أنها مثلي تعاني صراعا مماثلا لصراعي وإن كان أشد وطاة لأنها أكثر قسوة على نفسها مني، وقتها انكشف الحجاب ورأيت. لقد اكتشفت ابنتي أنها امرأة.

حاولت الحديث إليها خلال النهار ولم أنجح. ماما حضرت لتمضية النهار معي. بدت الحياة بسيطة وآمنة وماما معي في غرفة الجلوس نلوك ذكريات حلوة بطعم السكر.

كان مجدي أطول مني قليلا، له شارب خفيف بلا ذقن بعد، وكنا نلعب الشطرنج. تظاهرت بمعرفة كبيرة باللعبة لما وجدته مغرما بها. كنت أجاهد كيلا أكشف جهلي بطريقة تحريك القطع. كان صاحب ابتسامة ساحرة. كنت أبحث عن أي سيرة ضاحكة كي أغرق في ابتسامته. كان الصيف في رأس البر من أجمل إجازات حياتي. كنا نقضي وقتا في عشة جدي وكان أبي الرجل المشغول بالعمل معظم الوقت يجد وقتا لأسرته فقط في رأس البر، فارتبط الصيف هناك بأبي. كنت أنا وأختي نحب الذهاب للشاطئ معه. كان أبي يعلمنا السباحة ولم نكن نخاف من التوغل في البحر معه. وعندما تعرفنا على جيران الهنا ذات صيف، صارت رأس البر موضعا لقلبي أتركه هناك وأشتاق للعودة اليه.

كنا نتبادل مجلات تان تان. لم يكن أينا يملك المجموعة كاملة. كنت أحب مغامرات الأكوان الموازية والدروب الوعرة في أدغال الميثولوجيا القديمة. مجدي كان يفضل سباقات السرعة وحل المعضلات البوليسية. كنت مغرمة بالقصص المصورة المستوحاة من الأدب أو التاريخ. كان يجادلني أحيانا أن الأدب عبء كبير على العقل البشري.

"تخيلي المدرسة تبقى حلوة قد ايه من غير حصة النصوص والشعر والمحسنات البديعية، ومن غير القصة المقررة."

كنت أوافقه، ثم آتي بحجج متواضعة من قبيل "برضه القصص مسلية." فيرد "لبعض الناس. بس برة التعليم." كنت أذكره بحبه لقراءة الألغاز. كان يصر أنها ليست أدبا. أتمنى لو عرفت رأيه الآن في من كانت مثلي قضت عمرا تقرأ الأدب وتدرسه وتدّرسه. لم أعد أعرف له أرضا سوى ذاكرتي المتعبة.

جاءتني مكالمة رندا وقد شعرت بأن أرضي عطشى لصداقتها. راندا تقدم لحياتي توازنا أفتقده. يبدو أنني بدوت مرتبكة وفاقدة للحماسة، لأن راندا سألتني أكثر من مرة إن كان هناك ما يضايقني. احتميت بالكليشيه التقليدي: الحياة ومشاكلها.

"لما يكون معاكي توأم روحك كله بيهون."

لم أستوعب العبارة إلا بعد دقيقتين. كانت تتحدث عما دار في قسمها من مهاترات الزملاء. كانت تضحك وتسخر وتنتقد كعادتها. لم تكن كلمات مبتذلة مثل "توأم روحك" من قاموس رندا أصلا. لابد وأنها كانت تقصدني. فأنا المستمعة المخلصة لأغنيات ميادة الحناوي المنقرضة من أسواق الفن. لابد وأنها عبارة من عباراتها المستترة خلف السخرية. لابد وأنها قد نفذت إلى عقلي أو، على الأقل، كعادتها، كشفت عن البثور الكثيرة داخل روحي والتي لم يعد يداويها طموح علمي أو عائلي. حاولت جرها إلى منطقة القلب، كي أستزيد من مقولتها الغامضة. لم أفلح.

تحدثت ابنتي عن العمل. تحدثت عن التنظيم الدقيق وكيف أنه سر النجاح. والدها اصطحبها في جولة في شركته وسوف يصطحبها إلى المصانع قريبا. تحمس ابني للفكرة كلها. واقترح على والده أمرا خاصا بنظام التدقيق في مواعيد الحضور والانصراف لم أستوعبه تماما. منة انخرطت في المناقشة معهم. يبدو أن زوجي يخفي حيلا كثيرة في أكمامه المتعددة. تأملته بين الطفلين، واكتشفت فجأة أنهما أولاده حقا، ليس بيولوجيا فقط، بل يحملان الكثير من ملامحه من الخارج والداخل. ورأيت نفسي أتفرج عليهم كمتلصص أو كضيف ثقيل طال مكوثه بينهم. في تلك الليلة أرحت رأسي

على كتف زوجي. لم أهتم كثيرا برفضه أو قبوله لحركتي تلك. عادة أنتظر منه دعوة صريحة أو غير صريحة للمسه. كان جسده منطقة لا أملك كلمة مرورها. وضع ذراعه حول كتفي. تمنيت لو كان هذا يومنا الأول معا.

طارق كان عابسا ملولا بل عدوانيا بطريقة لا تليق بحكمته المعهودة. كان الاجتماع طويلا مرهقا. لم أنصت لشيء سوى لكلماته هو. بعد الاجتماع حاولت الهروب من الباب الخلفي. لحق بي في الفناء ودعاني لتناول شيء في مكتبه. لدي ضعف فطري تجاه دعوات تناول مشروب مع أحد. لا أدري منبعها. ربما كانت كل تلك الصباحات التي كنت أرى فيها والدي يتناول قهوته معنا قبل الإسراع بالخروج إلى العمل ومزاحه معي وقبلته على وجنتي ووجنة أختي التي كانت تحمل سلام العالم كله لنا قبل أن نبدأ صباحنا.

طارق كان ودودا في المكتب عكس سلوكه في الاجتماع. لم يتطرق في حديثه لشيء يخص أينا. تحدث عن الشأن العام، أحوال الجامعة، حادث كبير ذكرته الصحف. فجأة وجدتني أسأله عن رندا.

ابتسم ابتسامة عريضة وقال "رندا أكاديمية من الطراز الأول. بتحاول ألا تتكلس في أروقتنا العتيقة."

أثنيت عليها وقدرت صداقتنا التي تعود إلى أيام ثانوي. لم يكن يعرف أننا كنا زميلتين في المدرسة. تركته يعتقد أنها كانت صديقتي. في الواقع رندا كانت مثلي الأعلى. كان لي صديقات أخريات وهي كذلك، لكنني كنت مستعدة لمبادلتهن جميعا بها وحدها. لم تكن مجرد طالبة متفوقة، بل كانت صاحبة رؤية وإبداع. لم تستكن أبدا للنظام التعليمي العقيم وأيضا لم تصطدم به. كانت مخلصة لما هي عليه وتعرف كيف تختار معاركها وتوقيتها. كنت أريد استعارة طرقها ولسانها.

في أحد الأيام أمسكت بي سور لويزا وبيدي رواية من روايات عبير داخل الدرج. صحبتني إلى مكتب المامير وأعطوني خطابا إلى والدي بعد أن أسمعاني وعظة صغيرة عن قراءة الكتب الضارة بالأخلاق. لم أستطع الاعتراف لأمي بما حصل وتمنيت لو لم تستجب لدعوة المدرسة للحضور. انتهى الأمر بأمي إلى منعي من قراءة السلسلة لأنني ما زلت صغيرة وحملت العار في صمت كلما شاهدت سور لويزا.

رندا، حين قصصت عليها هذه القصة على أنها طرفة بعد سنوات طوال، قالت لي في بساطة "مكانش من حقها تصادر الكتاب منك، لأننا كنا في حصة فاضية وحتى مامتك مكانش من حقها منعك من قراية رواية زي دي لأن عمرك كان خمستاشر مش خمسة."

كانت وقتها في إجازة مع زوجها الأمريكي في مصر. كانت تطير من فرط الحرية. وكنت أتأملها في إعجاب، بل وتقديس. كان زوجها متعجرفا بعض الشيء. ولم تكن إنجليزيتي طلقة بالقدر الذي يسمح لي بالتواصل معه. وكنت أشعر أنه ينظر إلى جوباتي الواسعة الطويلة على أنها ملابس القرن التاسع عشر. كنت في ذلك الزمن أكتفي بقصة شعر كاريه بسيطة مع أقراط ذهبية لا تتعدى الأذن وخط كحل يكاد لا يرى ومسحة من أحمر شفاه من لون غير قان. كانت ملابسي واسعة، أحاول قدر الإمكان إخفاء الكيلوجرامات التي تركتها لي الولادتين. لكنني كنت فخورة بنفسي إلى حد كبير. ربما لأن العالم كان ما زال يحتفظ ببعض المنطق، أو ربما لأن زوجي لم يكن قد غرق في حياته الموازية الخفية بعد، وربما لأن علاقتي بحماتي كانت تسير في طريق الاستقرار أو الركود أيهما أقرب. وربما لأنني كنت ما زلت أحتفظ بطاقة حب هادرة.

لم يتوقف حديثنا طويلا عند المدرسة الثانوية التي جمعتني ورندا. طارق كان يحاول سبر غور أفكاري. لديه طريقة غير مباشرة في جرجرتي إلى أحاديث عامة يستخلص منها ما يريد. لم أكن أحب أن أكون على الجانب الآخر من هذا

الحوار. انشغل بمحادثات عاجلة على هاتفه الخلوي بعض الوقت. أخرجت البلاكبيري القديم من حقيبتي. أردت أن ألتقط له صورة. رفعت الهاتف وفعلتها. لم ينظر نحوي كان يخط رقم هاتف على ورقة. حفظت الصورة سريعا باسم بليزير Plaisir.

حدثته عن التغيير الجذري الذي أصاب ابنتي.

علق "خرجت للدنيا. الدنيا أكبر معلم."

قلت وكأنني أحدث نفسي "دي نسخة من باباها من جوة ومن برة."

ابتسم في سخرية واضحة "يبقى كنت بتعشقيه جدا لما حملت بيها."

انكسر شيء ما بيننا بعد عبارته تلك. شعرت بمذلة كبيرة ورغبة عارمة في البكاء وبحرقة.

خرجت مع نجوى لزيارة معرض معقود في نقابة زوجها. كانت مصممة على تفريغ جيوبه من المال. كانت تعلم جيدا أن قيمة زوجها في سوق النخاسة أنه قادر على الشراء لا أكثر ولا أقل. طوال الطريق لم تكف عن السخرية منه. أطالت الحديث عن قدراته المتواضعة في الفراش وصبرها عليه طوال السنين. نصحتها بالحديث إليه وجها لوجه. نظرت إلي نظرة سوداء وقالت إنها لن تتحدث إليه أبدا إلا بعد أن يدفع ثمن جريمته.

"مش بيقولوا ولكم في القصاص حياة. أنا محتاجة القصاص عشان ترد لي الحياة."

ورقة وداد رقم ستة

بدأت عودة الجنود من المغامرة السلطانية. محمود خرج منذ وقت طويل متفقدا أباه. وداد تعد العدة لعمل فتة باللحم. ولاد الحلال كثر رغم الفاقة والحيرة والخوف. أم العواجز لا تتخلى أبدا عن أبنائها. الضجيج المتواصل وأصوات الناس وصراخ الأطفال ولعبهم وعبثهم. عاد محمود ولم يعد والده. طمأنها أن كثيرين عادوا إلى مصر مع الخليفة لكنهم ما زالوا ينتظرون الإذن بالتسريح.

لا بأس. فليتناول الأطفال الفتة الليلة وغدا إن شاء الله يكون الأب وسطهم، وستكون أجمل ليلة حتى لو كان الاحتفال بالفول النابت فقط.

القاهرة (حَرام)

كنت أعد بحثا عن لو مار كي دو ساد. رغم الذعر الشخصي الذي أصاب روحي الوديعة من شراسة نصوصه، إلا أنني كنت أرى فيها وجه البشر الحقيقي. استغرقني البحث وبدأت أتفكر في حياتي الجنسية منذ زواجي وحتى اليوم. شعرت بالرعب، لأنني رأيت نفسي واحدة أخرى في ذهن زوجي. امتلأت رأسي بأنات العذاب وتأوهات الشبق ووجدت نفسي أتساءل أليس الجنس أحد أوجه العذاب وليس المتعة. لو تأملنا الثمن المدفوع في هذه المتعة لارتعنا منها ونأينا بأنفسنا عنها تماما. تذكرت سور كارولين الإنجليزية الرقيقة التي حكت لنا كيف دخلت سلك الرهبنة. قالت إنها لم تشعر بأنها تضحي بأي شيء وإنها نشأت في أسرة سعيدة مترابطة وأخوتها لهم أسر جميلة وأبناء. لكنها اختارت أن تكون أما لكل أطفال العالم وأن تخفف المعاناة عنهم. وهذه الرسالة في حد ذاتها هي ما شكلت حياتها التي قضتها من سن العشرين وحتى يومنا هذا. سور كارولين كانت تقرأ لنا القصص بالإنجليزية المبسطة وتنظم لنا ورش صغيرة لتمثيل الاسكتشات بالفرنسية والإنجليزية.

في ذلك الوقت، تمنيت لو كنت أنا هي. لم أكن أتمنى أن أكون راهبة على ما أنا عليه، بل تمنيت استعارة شخصيتها وحياتها. كانت تعجبني بشعرها الكستنائي القصير ووجها المليح المتوج بدرتين خضراوين وبرائحة الياسمين وخضرة الحدائق في ملابسها ولكنتها المضحكة حين تتحدث بالفرنسية. امرأة مشبعة بلا جنس.

فتحت ياهو كي أقرأ رسائلي على حسابي الشخصي، فقرأت خبرا عن القبض على رجل قتل عددا غير معلوم من النساء بعد اغتصابهن. كتبت كلمة اغتصاب بالفرنسية في محرك البحث. قضيت وقتا غير قصير في التجول بين حوادث الاغتصاب حول العالم ومواقع المنظمات التي تقدم خدمة نفسية واجتماعية لضحايا الاغتصاب واعترافات أولئك الضحايا. قرأت عن سوق نخاسة للأطفال في أوروبا الشرقية وعن الاغتصاب الوبائي في بعض مناطق إفريقيا. قررت أن أكتب بحثا عن الاغتصاب. لا يمانعون في الحديث عن الكوارث في أبحاثنا طالما لا تطالنا نحن بشكل مباشر. الجنس شر ولا ضرورة له. إنجاب الإطفال لا يحتاج إلى الجنس بل المعاشرة. الحيوانات لا تمارس الجنس. الإنسان فقط هو من يرتكب هذه الجريمة. قررت التحرر منه واختبار قوة عزيمتي.

حول طاولة العشاء في بيت حماتي، حررت شعري من الإيشارب. كان أقصر مما يمكن أن تقبل به. لكنه كان كثيفا ومفرودا بالسشوار. نظراتها أغرقتني في لجة لزجة من عدم الثقة، سرعان ما حاولت استعادتها بتذكر كلمات رندا الخالدة "جسمك ملكك أنت، وأنت الحكم الأول والأخير عليه."

لاحظت حماتي التغيير في مظهر ابنتي. كانت ترتدي ملابس فضفاضة كالعادة لكن بالأبيض والأسود. قبلت خلع الطرحة العريضة التي تعطيها مظهر بائعات الرصيف، لكنها جمعت شعرها الجميل في شينيون قاس بملاقط حادة جدا، التعذيب في مواجهة المتعة. كان العشاء لذيذا. كانت حماتي تستأجر شيف بضعة أيام في الأسبوع لإعداد الطعام لها وكان راتبه من جيب زوجي. كل فواتير حماتي كان زوجي يتولاها نيابة عنها. وكنت أرى في ذلك وضعا طبيعيا فيما سبق. إلا أن هذا خلق منافسة غير مرئية بيني وبينها. كانت دائما تعقد مقارنات بين ما ارتديه من ذهب ومجوهرات وبين ما لديها، بين ملابسي وملابسها، بين جسدي وجسدها. كانت تحمل ملامح أرستقراطية وذكرى المرأة الخارقة الجمال التي كانت في يوم من الأيام والتي تطل علينا من صور الأبيض والأسود. كانت جزءا لا يتجزأ من صورة ابنها الرجل الوسيم الذي يزداد وسامة مع التقدم في العمر ويزداد ثراءا. كان ابنها يمثل نجاحها الأكبر في تحدي الحياة. بناتها

كن جزءا أيضا من ذلك النجاح، لكنه نجاح صار ملكا لآخرين. أما نجاح ابنها فكان ملكا لها وحدها. كان يكملها، تلك السيدة ست البيت عضوة النادي الأشهر والتي كانت تشتري ملابس الشتاء والصيف من أوروبا والتي عاشت كأميرة الحواديت مع زوج مدله في محراب جمالها وأبناء نقلوا جمالها إلى العالم: الخليج وأوروبا وأمريكا الشمالية، ودرة الجمال هو الابن الذي تمكن من بناء امبراطورية ناجحة عنوانها الجمال والثراء. لكن ذرة من تراب تشوه هذا الكمال، امرأة لم تستطع الصمود في وجه عاصفة الجمال ولم تستطع الحفاظ على إرث الجمال في العائلة. فها هي الحفيدة التي تحمل ملامح جدتها الأسطورية والتي قد تقتل الكثيرات أنفسهن للحصول على مسحة لا تذكر منه، غارقة في سواد يلف جمالها ويخفيه. من أين أتى؟ من البذرة غير الصالحة، من الأم اللاهية عنها وسط ترهات الأكاديميين الذين لا يكفون عن الضجيج والجلبة بلا طحن. والابن، رغم نبوغه وبراعته، ليس وسيما كأبيه، لكن لديه فرصة للنجاة من المصير المحتوم لو كف عن الإيمان بأمه وتخلى عنها وانضم لمعسكر الأب. كانت حماتي تراني خروفا أسود في قطيعها الناصع البياض. رغم ذلك، كانت لنا أوقاتا ننعم فيها بهدنة أحرص كل الحرص على الالتزام بشروطها. كانت أقصى الشروط هو التسليم لها بالضربة القاضية في حلبة الجمال. لكن ذلك العشاء الطويل خلا من الصراعات اللغوية واكتفيت بالابتسام ومدح الطعام ومدح عبقرية زوجي.

التزمت بأهداب العفة عدة أيام. لم احتج لمجهود كبير. كان يكفي أن أدخل الفراش قبله أو بعده. لا مبالاته جعلت الأمور سلسلة. كنت أتوقع مواجهة. كنت أتمنى أن أعلن له رفضي لرجولته. كنت أتخيل نفسي متمنعة ومنيعة، وكان هذا الخيال يلهبني ويسرني أكثر من أي لحظة شبق فلتت مني بين أحضانه. في ذلك الصباح استيقظت وأنا أشعر أنني في مكان قذر. فتحت عيني في ذعر كي أتطهر، فاكتشفت أنه مجرد كابوس.

لا أحب الصباح عندما يبدأ بكابوس. كان زوجي في الحمام، سمعت صوت الدوش. الآن سيخرج معطرا منتعشا حليق الوجه وسيحملق في وجهي الناعس وشعري المنكوش بعينيه الجميلتين وسيذبحني بنظرة استنكار لأنوثتي المسحوقة تحت آثار النوم. حاولت أن أنهض وأرتب حالي سريعا قبل خروجه. ثم تذكرت كلمات أخرى خالدات لرندا "أنت جميلة لأنك كدة فعلا، مش عشان جوزك شايفك جميلة." تحاملت على جسدي المنهك بأحاسيس سلبية بعد كابوس القذارة، وأدخلت قدمي في الشبشب الوردي، حين لمحت هاتفه يضيء ويصدر صفارة الرسائل النصية. لم أتردد في الامساك بالجهاز الذي يخفي في صدره كوابيس كثيرة. لم أكن أتلصص على زوجي، ليس تعففا وإنما رعبا مما قد يتبدى لي. قاومت شيطان الفضول طوال سنوات، لكن في ذلك الصباح، قررت أن استسلم للغواية، ودعوت الله ألا تحمل لي هذه الرسالة ما كنت أخشاه. قرأت الرسالة مرات عديدة، لم يأتني الاستيعاب فورا، احتجت إلى أن أترجمها في عقلي بلغة قد أقدر على استيعابها. قرأتها مرة أخيرة قبل أن أغلق الهاتف الذي انزلق من يدي تحت فراش الزوجية.

كان مجدي دمث الخلق مهذبا. عندما كان يجدني وحيدة في الفراندة، كان يجلس غير بعيد عني لكنه لم يحاول أبدا أن يقترب من جسدي. كنت وقتها في الثالثة عشر، ولم أكن أدري عن الحياة شيئا خارج أسوار مدرسة الراهبات ودفات كتب الأطفال والناشئين. مجدي كان يكبرني بثلاث سنوات، على وشك الحصول على الثانوية العامة. كان يبدو لي عملاقا، وكنا في زمن العمالقة، الرجال الأبطال والنساء البطلات. كنا نفخر بخالي الذي شارك في معركة العبور ولا نكف عن الحديث عنه وكان لمجدي خال شارك في الحربين. لذلك كنت أشعر أننا فولة وانقسمت نصفين، فقط لهذا السبب. أمي كانت تحبه وتبارك صداقتنا البريئة بلا كلمات. كنت أحكي لها ما يدور بيننا من أحاديث وكانت

تثني دائما على عقله الراجح ونضوجه. كنا ننزل البحر سويا برفقة الأصدقاء. كنت أحب لعب الراكت معه. وفي المساء نلعب بالكرة ونتسابق وعندما نهدأ نكتفي بلعبة الأفلام أو أتوبيس كومبليه لو لدينا طاقة على الكتابة. كنت أعلم أننا سنكون لبعض، وأن الله سيبارك لنا لو صنا أنفسنا وأجسادنا.

ورقة وداد رقم سبعة

كان محمود يعود كل يوم لأمه وأخوته الصغار بمحصول يوم من العمل الشاق. بعض الدقيق والسميد والزيت وقطن للغزل. لم تكن وداد تشكو بل كانت تحمد. يلهج لسانها بحمد الله على كل شيء. جارتها العجوز الطيبة لم تكف عن مراعتها ومراعاة أطفالها. كانت تصحبها لشباك أم العواجز. وكانت ثقة وداد تزداد في شفاعتها يوما بعد يوم. كانت تعلم أن زوجها سيعود وأنها ستجتمع به يوما، رغم المرض والموت وجحيم الحرب. وأن الله لا ينسى عباده.

القاهرة (حَرَمْ)

"لن تقدري على ذلك وحدك."

في نيس كان الحرم الجامعي مقسما ما بين خضرة وملاعب وقاعات درس ومكتبات ونزل للطلبة. لم أكن أختلط بأحد خارج حلقة الفريق البحثي تحت إشراف أستاذي الستيني. كنت أرى فيه تاريخا من الكتابة المتعمقة والرصانة العلمية. كانت له إسهامات كبيرة في فن النقد وكنت فخورة بالتلمذة على يديه. كانت حياتي في نيس بسيطة وسلسة واستمتعت بالسكن في حي هاديء وبالحياة في عالم خلقته من مداد الكلمات وعروض المسرح والطعام الطيب. كنت أفتقد أمي وأختي كثيرا. كان زوجي يأتي إلي في زيارات قصيرة. كنا نسير معا في الشوارع وأيدينا متشابكة وكان يقبلني على فمي في الشارع والمطعم وأمام باب البيت. كنت أضحك طويلا من قلبي وكانت ليالينا في نيس مفعمة بشوق شرقي النكهة وجرأة فرنسية الطابع. كنت امرأة سعيدة.

لم يطل بي المقام طويلا في لجة المهانة. جلست على ترابيزة المطبخ أتأمل منة وهي تعد الشاي والقهوة وأدهم وهو يقطع التوست ويرصه بجانب صحون الزبد والمربى. دخل زوجي المطبخ وطلب بيضا مسلوقا. صوته هبط على ظهري كسياط موجعة. سألني ابني إن كنت مريضة. كنت قد وضعت خطوطا كثيفة من الكحل الرمادي وأشفعته بضربات كثيفة من ماسكرا مقاومة للبلل. شعري صففته في ذيل حصان قصير أسفل رأسي. اكتفيت من ضربات الزمن الموجعة لأنوثتي ولم أكن أرغب في المزيد. تذكرت الكابوس والرسالة وأسرعت إلى الحمام وقد قلبت لي رائحة البيض معدتي.

"لا تستطيعين مواجهة هذا بمفردك."

طلبت من نجوى الذهاب معي لعمل حمام مغربي في بيت الجمال والرشاقة. قالت إنها لا ترغب في ذلك. ألحيت عليها وذهبنا. المكان مزدحم بروائح الزيوت والأعشاب والكريمات ودخان السشوار. استقبلتنا صاحبة المكان بمصرية ركيكة. أغمضت عيني واستسلمت لأناملها. قررت عمل حمام العروس كما تسميه السيدة صاحبة اللكنة الركيكة. طلبت منها بحزم إبعاد طفلها الصغير عن المكان. نجوى اكتفت بتنظيف عميق للبشرة وصبغ شعرها. غرق جسدي تحت طبقات الخلطة الناعمة. شعرت بدغدغة ما لبث أن تحولت إلى شيء لاذع. احتكاك الليفة القاسية بجلدي بدا وكأنه يخلص مسامي من كل ما يسدها من وجع واختناق ودموع لم تذرف. لم أعبأ إن تحول جلدي إلى لون النار بعد الحمام. المهم أن أتطهر.

"حاسة باسترخاء لذيذ."

نظرت إلي نجوى في حيرة. تركتني بعد أن تبادلنا العبارات القاسية في حق كل جنس الرجال "اللي يستحقوا الحرق."

زارتني أختي سريعا كي تحضر لي بعضا من مفارش الكروشيه الجميلة التي تشتغلها. يبدو عليها التعب والرضا معا. أعرف أن لا ألفة بينها وبين بيتي النائي. هي تسكن في المدينة القديمة، العاصمة كما عرفناها وألفناها، في حي كان ينعت بالرقي، حيث كان لذلك النعت قيمة فيما مضى. تعيش حياة تحاول جاهدة أن تكون فيها أصالة ما كانت عليه حياتنا في بيتنا. أطفالها ينعمون بأم عاقلة لا تهتم لشيء في العالم سوى بعائلتها الصغيرة والكبيرة وأب جاد حيث الجدية ندرة في عالم البشر.

جلسنا في الصالون الصغير الذي لا أستقبل فيه سوى صداقاتي الحقيقية. أخبرتها عن الحمام المغربي. ضحكت وقالت إن الفرك باللوفة يعقبها حمام دافئ مع منقوع الكاموميل والشاي الأخضر وبعض الملح لهما نفس التأثير وعلى الأقل ستضمنين ما لامس جسدك. حدثتها عن الطهارة ورغبتي الشديدة أن يكون جسدي طاهرا. "ما لامس جسدك" يمكن أن يكون هواءا ملوثا أو شيئا ملوثا أو جسدا ملوثا. سألتني عن أحوال ابنتي. أخبرتها أنها ما زالت منعزلة، لكنها على الأقل تخرج ساعات كل يوم إلى العمل مع أبيها، يكلفها بمهام معينة ويعطيها راتبا مقابل الساعات التي تعملها، وأن مدى أحاديثها قد اتسع أبعد من تهذيب النفس وعدمية الدنيا وظلمة القبر. فجأة تحدثت معها عن مجدي. لم تتذكره على الفور، كانت صغيرة. اعترفت لها لأول مرة أنه كان حبي الأول.

الإسكندرية (بيتش)

شقة الإسكندرية كانت نقلة كبرى في الطريقة التي نقضي بها الصيف. كنت أشعر بغربة في الإسكندرية بعد حميمية عشة جدي في رأس البر التي لا مثيل لها في العالم. الإسكندرية كانت هي القاهرة زائد شاطئ. لم تبهرني كما بهرت أختي وأمي. لم يكن أبي يقضي شهور الصيف كلها معنا هناك. ربما ضاعف ذلك من نفوري من الصيف السكندري. كما أننا كنا نتعرض لمعاكسات لا أول لها ولا آخر من مرتادي الشواطيء من الوافدين من محافظات الدلتا والصعيد المتهافتين على الأجساد العارية التي تداعب خيالهم المحدود. كنت أفضل التمشية على الكورنيش والجلوس على الكازينوهات، خاصة مع وجود أبي وأقاربي. كنت أحمل حنيني إلى رأس البر في كل صيف نقضيه في الإسكندرية. وكنت أحمل وجعي بخروج مجدي من حياتي. رأيته لآخر مرة يوم سفرنا من رأس البر قبل بدء الدراسة بيومين. كانت ملامحه جادة وشاربه ازداد كثافة وكنت أحاول جاهدة مقاومة دموعي ورغبتي العارمة في تقبيل شفتيه. أعطاني ورقة خط لي فيها عنوان عمه في أمريكا وأكد لي أنه سيكتب لي رسائل كثيرة. أخبرني أن حلم حياته قد تحقق وأنه سيحصل على درجته العلمية من جامعة مرموقة. حاولت تذكر كل النهايات السعيدة في كل القصص المشابهة لقصتي، لكنها لم تعزني.

هيباتيا... ورقة الحكمة

كان الجارور مثقلا بالأوراق المزدانة برسوم هندسية، وكانت هيباتيا جالسة مطرقة الرأس تفكر وقد أمسكت بالريشة التي جف مدادها. كانت المسألة التي تحيرها هي القياس الدقيق لكواكب المجموعة الشمسية. كانت تدرك كل ما كتبه فيثاغورث وباقي علماء الإسكندرية. والآن عليها أن تطرح السؤال للمناقشة في الحلقة العلمية القادمة. دخل والدها بخطى غير مسموعة إلى محرابها. رفعت رأسها لما أحست بهالته وأمالت رأسها المتعب مبتسمة. جلس الرجل الهرم قبالتها وأعلن لها مدى فخره بنبوغها وذكائها وجمالها أيضا. هبت نسمات بحرية من الطاقة المفتوحة فحركت الأوراق قليلا. وخطر على رأس هيباتيا خاطر: لم لا تكون الشمس هي مركز المجموعة وبذا تكون المسافات التي قاسها فيثاغورث أكثر دقة مما نتصور؟

الإسكندرية (عِطْر)

كررت على نفسي عبارة "لا يمكنك مواجهة الظلام وحدك" وسرت بخطوات مثقلة إلى غرفة ابنتي. لم تكن مظلمة على غير العادة، بل وجدتها تحمل الآيباد الأبيض على ركبتيها وتقرأ فيه على الكنبة. حتى لا أتطفل عليها، جلست على الكرسي الصغير أمام مكتبها وسألتها عن يومها في العمل مع والدها أمس. شعرت بدوار خفيف لوجود كلمة بابا في الحوار، لكنها صارت معضلة وجودية بالنسبة لي الآن. تحمست الابنة للإجابة، بل وأطلعتني على تفاصيل أدهشتني. فهي تتدرب على طريقة أطباء الامتياز. تقضي وقتا في كل قسم. تطلع على نظام العمل بشكل عام، ثم تتولى مهام محددة. تساءلت بيني وبين نفسي عن تفسير العاملين هناك لمظهر الابنة المتناقض مع حال أسرتها. الأب يبدو فخورا بابنته كل صباح ولا يبدو عليه أدنى امتعاض من ملابسها الكئيبة. تبدو بجواره وكأنها نسخة مشوهة منه. فهو مهندم ممشوق القوام أنيق معطر. أما هي فجمالها معبأ داخل كيس فضفاض كالح اللون من الأقمشة الكثيرة وجسدها سجين داخل الحدود المظلمة لتلك الأقمشة.

حملت الآيباد ونهضت كي تريني تقريرا تعده خاصا بقسم المستخدمين. وأوضحت لي أنها قرأت سياسات العمل وأنها تعد تقريرا بالإنجليزية عما يجب تعديله فيها. نظرت إلى الشاشة اللامعة وقرأت صفحتين كاملتين. كان أسلوبها مباشرا وكتابتها تقنية واضحة. لم أكن أدرك أنها تستوعب هذه الأشياء. أنى لها ذلك وهي غارقة في سنوات كهولة مبكرة ومنسحبة من العصر ومن يعيشون فيه إلى مكان سرمدي. أدركت أنه يجب أن أحمي هذه الصغيرة من كابوسي. يجب أن أحافظ لها على طاقة النور التي فتحت لها وأنقذتها من الموت البطئ.

كنت أعرف أن الوحيدة القادرة على مساعدتي هي رندا رغم راديكاليتها. لكنني وجدت نفسي أتصل بطارق. أغلقت الخط بعد سماعي لأول رنة. ما هكذا يكون التطهر من الدنس، هذا ما حدثني به عقلي. على سجادة الصلاة انسابت دموعي بلا صوت. لم أميز ما كنت أقول، بل لا أعرف عدد الركعات، ظللت على سجادة الصلاة حتى فتح علي ابني الباب ليقول شيئا ثم خرج.

لم يعاود طارق الاتصال بي. لكن رئيس الجامعة الخاصة فعل. ذهبت للقائه فوجدته مشغولا مع طابور لا ينتهي من الزوار والعاملين والأساتذة. كان حديثا متقطعا. ندمت على ذهابي إليه بدون طارق. صرت عاجزة عن الاعتناء بشؤون عملي وأنا على مشارف الأستاذية. شعرت بالهراء الذي يملأ العالم. استأذنت في الانصراف. ألح في دعوة على الغداء وجدتها سمجة أكثر منها كريمة. احتججت بالمسافة التي علي قطعها في رحلة العودة.

وبينما أنا وسط الصحراء رن البلاكبيري وظهرت صورة طارق التي التقطها له خلسة على الشاشة. ارتبكت للحظات. ثم أوقفت السيارة برعونة مفاجئة. أتاني صوته كينبوع ماء رقراق وسط الحر والرمال. كانت السيارة باردة لكن الشمس في الخارج حارقة. أخبرته عما دار بيني وبين رئيس الجامعة. وعد بمساعدتي في إنهاء الورق في الكلية. لم أكن حقيقة بحاجة إلى المساعدة، بفضل شبكة علاقاتي الطيبة بالموظفين هناك. قال إنه في الإسكندرية للقاء بعض الشخصيات الهامة وأعقب أن رندا ستلحق بهم في المساء في الجمعية. شعرت باختناق وندم. كانت الرمال تتراقص هازئة على زجاج السيارة الأوبل القوية. لن تطمرني الرمال. سمعته يضحك. لم انتبه لما قال. هل يعرف أين أنا الآن؟ في البقعة الوسطى بين الحياة والموت؟ سألني طويلا عن مزاجي وأحوالي. أخبرته عن بحثي عن السادية والاغتصاب.

صمت برهة ثم قال: "عايز أشوفك لما أرجع من اسكندرية. أنت وحشاني فعلا."

فراش الزوجية مفروش بالشوك والمر. كنت أحتاج إلى جرعة كبيرة من الخدر حتى أدخل في سباتي الليلي. كنت أقضي أمسياتي أمام الكومبيوتر أقرأ وأدون ملاحظاتي واقتباساتي للبحث أو على سجادة الصلاة في الغرفة الصغيرة الملحقة بالمطبخ. كان زوجي يدور حولي مشمشما لبعض الوقت ثم يبتعد عندما يجد أن الفريسة لا تصلح للصيد الليلة. كنت أحرص على تكحيل عيني وتغطية جسدي داخل تي شيرتات عريضة. لم أكن أريد أن أعطه فرصة للضعف أو الزلل. كنت أتجنب النظر في عينيه. وأطالع صورة طارق على البلاكبيري من وقت لآخر كمراهقة تخفي صورة حبيبها في كتاب المدرسة. كانت اللعنة التي أحملها. جسد المرأة. عقلها وروحها لا قيمة لهما جانب جسدها. كان أبي يقول لنا إن العفة تبدأ وتنتهي في عقلنا وليس في جسدنا. لم تكن أمي توافقه على هذا الكلام وكانت تشدد علينا في ملابسنا، وترفض كل ما يتعدى الحدود الصارمة لما تراه مناسبا. لم أرتد في حياتي ملابس بلا أكمام، حتى فستان الفرح، رفضت أمي كل الموديلات المفتوحة الصدر والعارية الذراعين رغم أن خطيبي وقتها كان لا مباليا وموافقا على كل شيء. حتى إقامتي في فرنسا لم أتحرر فيها من الحدود التي اعتدت عليها في بيتنا. وعندما قررت ارتداء الإيشارب، لم أحتج لعمل تغييرات جذرية في دولابي.

كان زوجي قد دخل الفراش من أكثر من ساعتين. تسللت كالغريبة إلى غرفتنا. وانتبذت لنفسي ركنا بعيدا لا يلامس جسده. دخلت تحت الغطاء رغم الحر وثقل قميص النوم الطويل. دفنت جسدي تحت طيات القماش كي يظل طاهرا.

كدت أنعس، حين شعرت بيده تلامس ظهري. فزعت ونهضت وأنا أكاد أصرخ. لم أستطع تفسير خوفي سوى أنني كنت أحلم بشيء مخيف. حاول ضمي مهدئا، فانتزعت جسدي من بين يديه وقلت إنني متعبة وأريد أن أنام. أعطاني ظهره وقد هبط علينا جو مشؤوم.

هيباتيا – ورقة الجمال

اعتصرت هيباتيا الزيتون بيدها وحملت القدر إلى المطبخ. تضاحكت مع الخدم هناك لبرهة. دخل رسول الحاكم إليها وجدته أمامها بعد خروجها من المطبخ. كان يحمل رسالة مكتوبة. "لا تطرحي المسألة في لقاء العلماء القادم. الأجواء غير مواتية والإسكندرية تغلي. والأفضل هو عبور البحر إلى الجزر حيث الأمان والسلام. البابا مصمم على المواجهة."

كانت هيباتيا مقتنعة أن علمها لا شأن للكنيسة الوليدة به. لم تكن تعنيها الكنيسة كثيرا، قدر ما كانت تعنيها الحقيقة. كانت تعرف أنها جزء من كون رائع الجمال وأن مصيرها هو الغرق في ذلك الجمال والذوبان فيه. البابا يصر على سحق الإسكندرية وتحويلها إلى تراب يهبه إلى إلهه في مذبحه. وهيباتيا تحب الإسكندرية ولا تجد معنى للعالم إلا فيها. الجزر ضحلة أما الإسكندرية فثرية كبيرة شاسعة تصون تاريخ الإغريق منذ خط الإسكندر اسمها ووضع على رأسه تاج آمين. هيباتيا ترى نفسها امتدادا لماعت، وروح إيزة تحلق فوقها. كانت ترى نفسها حارسة للجمال والبهاء الذي يقدمه الكون للبشر لأن عليهم مسؤولية الوعي بذلك الجمال.

كانت شاكرة للتحذير المرسل من الحاكم. كان أخا حقيقيا لم تلده أمها، ووفيا لصداقته مع والدها. أحضر الخدم طبق الخضروات المنقوعة في زيت الزيتون والمعطرة بعشب المرمية والمزدانة بوريقات الجرجير. تناولت الخبز ووضعته في زيت الزيتون، قضمت قطعة صغيرة وقد راح ذهنها إلى عوالم أخرى.

الإسكندرية (قُفَّاز)

وافق زوجي على الخروج من منطقة الراحة وتمضية نهار الجمعة في بيت أمي. في بداية زواجنا، كنت أشعر بالتوتر كلما زارني زوجي/خطيبي في بيتنا. كنت أرى نظرات التهذيب الممزوج بالاحتقار لأسلوب حياتنا وترتيب بيتنا. كان والدي من الأثرياء بمنطق طبقتنا الوسطى، لكنه كان من المستورين بمنطق زوجي ووالدته. زواجنا كان ثمرة لفكرة سيطرت على عقل زوجي بعد أن قرر الزواج وهو في الخامسة والعشرين من فتاة من بيت محافظ. كانت العذرية هي ما يشغل باله. العذرية الحقيقية. لم يكن يؤمن بالحد الفاصل بين اللمم والمرود في المكحلة، الكل هادم للعذرية في نظره. تزوجني لأنه كان متأكدا أنه الأول وسيكون الأخير. وكان على حق. كنت أفوق خياله عن العذراء. كنت آخذ نفسي بالشدة في كل خيالات المراهقة وهرموناتها الجامحة. لم أكن أسمح لنفسي بلهو بريء أو غير بريء. حبي الأول هو من روض جموحي، إن كان لي جموح. تهذيب مجدي وصفاؤه النفسي هو ما جعلني أصمد في وجه كل ما من شأنه أن يهد معبد براءتي. واعتبر زوجي نفسه منتصرا بالحصول على فتاة لم يمسها قبله إنس ولا غيره.

أما لماذا قبلت به؟ فلأنني كنت مهزومة ومتعبة. سنوات الانتظار الخمس من سن الخامسة عشر حتى العشرين هدت كياني. لم تصلني رسائل ولا أخبار. كانت أمي تطمئن وساوسي من وقت لآخر بطريقة مستترة. فتذكر شيئا عن أسرة مجدي، لكنها لا تشفي غليلي. كتبت له على العنوان الذي تركه لي وضاع ما كتبته في المجهول. كنت على وشك التخرج وكان التعيين شبه مضمون. وظهر العريس اللقطة. لم أرد أن أخيب أمل أحد. الكل كان فرحانا. وزوجي بدا لي كنجم سينمائي يحقق حلم فتاة عادية. كنا نخرج معا إلى أماكن لم أسمع عنها من قبل إلا على صفحات أهل الفن والمجتمع. كان هو الآخر متحفظا معي في فترة الخطوبة. لم يكن يمد يده سوى ليسلم علي. وكان يمتنع عمدا عن أي إطراء يحمل رائحة المغازلة. كان يحافظ على خبيئته العذراء.

ليلة الدخلة كانت ليلة حزينة جدا. بعد صخب الفرح الذي حمل من الزيف أكثر من الحقيقة، شعرت بخواء كبير وبوحدة غريبة وكأنني انتزعت من جذوري. كان زوجي رقيقا لطيفا بل ومهذبا وأرستقراطيا. يبدو أنه شعر بذعري فأراد ترويضي بهدوء. أمضينا الليلة في الكلام والقبلات. أدخلني عالم الكبار رويدا رويدا، وظللت وقتا طويلا شاكرة له حسن صنيعه. كان من الممكن أن نكون زوجين سعيدين لو لم تكن حماتي هي حماتي. كانت الحاجز الكبير الذي يفصل بيننا والمصدر الأساسي لمنغصات الحياة. ربما أنا واهمة. لكن زوجي كان من الممكن أن يكون لي زوجا صالحا، لو لم أكن أنا بهذه الرخاوة والضعف.

بذلت أمي أقصى طاقتها في استقبالنا. كان حدثا فريدا بالنسبة لها. كنت عادة ما أزورها وحدي أو مع ابني وقليلا مع ابني وابنتي ونادرا مع زوجي. شعرت بالدموع في عينيها في أكثر من مرة. وافقت ابنتي على ارتداء الأزرق بدرجاته أثناء الزيارة، بل وقبلت الطرحة التي اقترحتها. بدت أكثر شبابا مما كانت عليه بعد انتهاء العام الدراسي. ابني كان لبقا ذكيا ومبدعا. دخل معها المطبخ وأعد لنا كريم كراميل رائع. كان يجيد كل ما يفعله.

الابنة كانت صامتة معظم الوقت لكنها كانت تنصت. زوجي حمل هدية ذهبية إلى أمي وقبلها بإخلاص. شعرت أنه يرضيني أنا. أي رشوة في العالم يمكن أن تمحو آثار الخيانة؟ عشت عمرا والخيانة تؤاخيني في فراشي. واخترت أن ألقي عليها بظلال الاستسلام كي تستمر حياتي. لم أرغب في حضن أمي كما رغبت فيه يومها.

رندا ظهرت أخيرا في الكلية. أحضرت أوراق مواد قامت بتصحيحها ومرت عليّ في مكتبي. كنت عائدة من مقابلة مع العميد. كانت جميلة داخل فستان صيفي مزركش. جمعت شعرها في ضفيرة قصيرة متداخلة خلف عنقها وارتدت

أقراطا وعقدا فرعوني النقش. قبلتني بحرارة لم أبادلها مثلها ولو أنني تصنعتها في صوتي. احتمينا بالتكييف من الهجير وصبت لنفسها كوبا من الماء في غطاء الزمزمية الخاصة بها. كانت تحمل ورقة مطوية وضعتها على المكتب. أخبرتني عن الإسكندرية وما دار بها من حوارات في الجمعية بحضور طارق. أعلم أن طارق يمهد لنفسه طريقا معبدا مع بعض ألهة الأوليمب في الجهة التي يرغب فيها. طارق يحب الكراسي الوثيرة وما تحمله من وهج السلطة. تحدثت رندا بحماسة عن مشروع حماية تراث ما ستشارك فيه، وعن أستاذ أمريكي وآخر يوناني سيشاركان فيه. وما دخل طارق بالتراث؟ لم أستطع نطق السؤال، فسيبدو معبرا إما عن وضاعة أو غيرة. اكتفيت بالأمنيات الطيبة البلهاء.

لا أعرف ماذا لبسني حتى سمعت نفسي أقول "طارق اتغير اوي. معنتش بثق فيه زي زمان."

نظرت رندا إلى أصابعها المزدانة بخاتم على قمته جعران ذهبي وقالت ببطء "أنت كمان اتغيرتي اوي."

كنت أعرف أنني فتحت صندوق بانادورا. هبت ريح السموم في وجهي.

لم أتكلم على الفور، ثم سألتها "ليه بتقولي كدة؟"

اعتدلت في جلستها وتأملت خاتم الجعران مرة ثانية، ثم رفعته إلي وقالت "اشتريته في رحلة الواحات مع الدكتورة فاطمة والمجموعة بتاعتها." أردفت "أنت مبتتصرفيش بثقة وكأنك مستنية تكشفي عن مؤامرة بتحاك ضدك."

"وهو فيه مؤامرة بتحاك ضدي؟" كنت أحاول كسب بعض الوقت قبل أن تلقي رندا بالقنبلة في وجهي.

واجهتني ونظرت إلى عيني مباشرة "حبك لطارق ملوش معنى ولا سياق في عالم الواقع. مش هتاخدي حاجة منه غير شوية متعة وكتير من الألم. وأنت صديقتي ومحبلكيش كدة."

حبي لطارق. كلمة مبتذلة. سقطت على رأسي كجردل مليء بالقاذورات العفنة. سرحت إلى وقت كانت رندا مرفأ لمركبي الحائر.

قلت بصوت مخنوق "أنا مبحبش طارق."

هزت رأسها في أسف. الفأر واقع في المصيدة. لا مجال للهرب. "طارق عارف كويس إن كل ده عبث. منه ومنك. لو كنت واحدة تانية، كان ممكن يكون عندك شجاعة التحدي وتدوسي على كل اللي بتحبيهم عشان أنانيتك."

كانت تحدثني وكأنني غير موجودة أمامها. لقد تناقشا هي وطارق عني وعن "حبي لطارق" وعن اليأس المغموس في التراجيديا الذي أعيشه. لقد تحدثت معه عن متعتي وعذابي ومقدارهما. ربما تحدثا عني وهما في الفراش بعد جولة من جنون الجسد.

فقدت التركيز فيما تقول "أنت بتخرفي أكيد."

رندا شرسة فيما يتعلق بما تعتقد أنه حق. لم تكن مهووسة لكنها راديكالية. قالت لي بجفاء "الإنكار هو أسوأ حاجة ممكن تعمليها دلوقت. مش مهم تفتحي لي قلبك، المهم إنك متحكميش على نفسك بعذاب عبثي." أصبح صوتها أقل حدة وهي تقول "طارق رجل عملي. شايف فيكي أنثى هشة تغريه إنه يقطمها ولو مرة على الأقل."

اعترضت على ما تقول. كانت قاسية باردة تقطع من لحمي وأنا حية. شعرت بمهانة عظيمة ورغبة شديدة في الموت. كان شرفي هو تاج عزي، والآن راندا ألقت في وجهي قفازا وتطلبني في مبارزة لست على قدرها.

خرجت مهزومة كالعادة. في كل مواجهاتي. قدت السيارة وسط غابة من الزعيق والهواء الخانق. حاولت التسرية عن روحي المجروحة بسماع الموسيقى. باخ يقدم لي حلا مؤقتا لألمي. رن الهاتف وظهرت صورة طارق. انهمرت دموعي غزيرة.

نجوى اشترى لها زوجها سيارة جديدة وطقم لولي. كانت سعيدة ومشرقة وهي تحدثني عن مقتنياتها الجديدة. طلبت منه تجديد سيارة ابنها فوعدها بذلك العام القادم بعد أن يدخل الجامعة. ستدخله جامعة أجنبية بالتأكيد. السيارة الجديدة واللولي الأصلي شفياها من عقدة الضرة. لم تعد تشعر بالألم. تخدرت تماما. مزحت معي طويلا. حاولت مجاراتها. ألمحت لها أنني اختلفت مع راندا اليوم.

"وايه الجديد؟ مين ممكن يتفق معاها؟"

راندا كانت ناجحة من وجهة نظري. لم تفعل في حياتها سوى ما أرادته وليس ما أراده لها الآخرون. نجوى ترى أن قيمة الست في أمومتها، غير ذلك مضيعة للعمر. أكدت لي أن زوجها يستهلك كميات من المقويات ستقضي عليه. حذرتها من استمرارها في منعه من العيش معها ومع الأولاد فردت "فاضل عالحلو دقة."

سألتها لماذا نحن دائما الضحية؟ دافعت عن نفسها إنها ليست ضحية، بل هو الأحمق الذي يدفع الآن دم قلبه كي يسترد مكانته لدى أسرته التي خسرها بسبب لا شيء. العبث يحيط بنا. تذكرت المغنية الصلعاء. لم ظن الناس أن بيكيت ويونسكو يكتبان مسرح العبث وليس مسرح الواقع؟

كان يرتدي قميصا أبيض محددا بالأزرق البحري فوق بنطلون جينز بنفس لون حد القميص. بدا شعره أقصر مما رأيته آخر مرة واتسعت المنطقة الخالية من الشعر في قمة رأسه. أتخيله في الستين بعد عشرين سنة وقد فقد كل شعره وامتلأ وجهه بالتجاعيد وربما سقطت أسنانه أو اصفرت ولم يعبأ بتركيب غيرها. حاولت أن أتجلد وأظهر اللامبالاة. لم أكن أعرف إلى أي مدى وصلت "نقاشاته" مع راندا. لذلك تصرفت بمنطق من يؤدي دورا في سيناريو متظاهرا أنه لم يقرأه.

كنا في الاجتماع محاطين بالزملاء وكل منشغل بليلاه. مال نحوي هامسا بشيء خاص بالأجندة المطروحة. أبعدت رأسي عنه قدر الإمكان. شعر بعداوتي. حاولت الابتسام فما فلحت. تكلمت كثيرا أكثر من المعتاد مني. كنت أريد أن أرسخ مكانتي في عالم الوحوش. اعترضت على الكثيرين. واستخدمت كلمات عامية كنت أحجم عن استخدامها. أظهرت مخالب لم أعتدها أبدا. كانت داخلي طاقة غضب نورانية تقودني. واكتشفت بداخلي أمازونية صغيرة مقدسة.

حاول استدراجي كالعادة إلى مكتبه بدعوة إلى القهوة. سخرت إن الجو حار وسرت بثقة إلى سيارتي.

لحقني وناداني باسمي مجردا بصوت مرتفع. لمس ذراعي وهو يقول في حزم "لازم نتكلم."

مزيد من العبث. اقترحت عليه ركوب السيارة معي. لا أعرف السبب في هذا الهذيان، لكنني كنت مثارة بشكل لم أعهده في نفسي. كنت أرى حولي كل شيء بالأحمر. هذه المرة خرجت به إلى رحاب الأطراف على الطريق المؤدي إلى بيتي. دخلنا واحة وارفة. طلبت كابتشينو وطلب هو قهوة مرة بالحليب. سألني إن كنت أرغب في الطعام. هززت رأسي مع نظرة ثقبت صدره في موضع القلب. شعرت بتفاهتي فجأة. وسألت نفسي ماذا يمكن أن يثبت وجودي مع هذا الرجل في هذه الواحة الصحراوية؟

أخبرني أنه يعلم ما دار بيني وبين راندا. أن راندا تتكلم بلسانها وليس بلسانه.

نعم المرأة الهشة يجب أن تقضمها مرة كي تشفي غليل فضولك الذكوري. تعرف رائحتها وهي منتشية وتلثم دموعها عند الفراق. شعرت بألم غائر في صدري. أغلقت البلاكبيري في حركات عصبية. خفت أن يحمل لي صوتا يفيقني من

غيبوبة الخطيئة التي أسقط فيها داخل فنجان قهوة. تكلم عن الاحترام والزمالة والمؤازرة. تكلم عن مباديء يسير عليها كالصراط المستقيم. في المغنية الصلعاء لا وجود لمغنية لا صلعاء ولا غيره. طارق يتحدث عن أشياء غير موجودة لا على الطاولة ولا في مكان آخر. سنعود سويا من الصحراء إلى مدن الصحراء وسأدخل المطبخ كي أعد الطعام لأولادي وسيعود هو إلى بيت يبحث عن أنثى وفراش مهجور من سنين. لا وجود لنا أنا أو هو في واقعنا. راندا على حق. في لعبة لبس الأدوار يمكن أن يكون طارق وأنا الرجل والمرأة كما تطلب منهما الطبيعة. الآن أمام فناجين القهوة نصف الممتلئة لا وجود حقيقي لطارق أو لي. هناك أستاذ يطمح إلى منصب رفيع وأستاذ مساعد تطمح إلى إكمال مشوار الأكاديميا دون حوادث مؤسفة. بين رشفات القهوة خرجت من فمه كلمات مسكرة بكل التشكيلات. أنت امرأة رائعة حلوة رقيقة عطوفة كريمة ذكية حساسة ناجحة. أنت كل ما يتمناه الرجل.

وكأن الله اكتفى من خلقه الإناث. وكأن الله لا يقلب القلوب. وكأن أخرى أو أخريات لم يسمعن حلو حديثه من قبل. ربما يمضي ليلته بين أحضان أخرى يسمعها هذا القول. وهو يتذكر ساخرا رفيقة فنجان القهوة التي فتحت له أذنيها كي يصب فيها العسل. خدرتني كلماته. بل لم أكن أريده أن يصمت. فقدت خط الشخصية في الرواية الماثلة بين أيدينا. حمل صوته لي حلما داعبني طوال عمري. أن أعثر على توأم روحي.

هيباتيا – ورقة الشفاء

ابتسمت هيباتيا في هدوء وهي تنصت لما تقوله صديقتها. ربتت على يدها مهدئة من روعها قائلة: "لا تخافي يا عزيزتي. الإسكندرية أجمل مدينة في العالم. لن تخذلنا."

كانت الاحتجاجات الهادرة خلف أبواب الكنيسة. الفم الذهبي قد أقر بهرطقة مرتادي المكتبة. هزت هيباتيا رأسها المتعب في أسف. عاودت صديقتها النحيب. قامت لتحضر لها شرابا مهدئا. كانت تعلم أن الحاكم يلح عليها كي تتعمد. سينقذها هذا حتما من الغضب البدائي الأعمى. هل يقبل الرب الرياء؟ كثير من العلماء فروا من الجنون الزاحف على منارة العلم. هيباتيا لم تفقد ثقتها بعد في الخير وأن أربابه سينصفونه.

الإسكندرية (غَرَق)

سافرنا الإسكندرية في موكب مهيب. كنت صامدة في معركتي الهائلة ضد الدنس. لم يلمسني زوجي من أكثر من عشرة أيام. كان ذهني صافيا تماما، وكنت أشعر بنشاط عكس مزاجي السيء. لقائي الأخير مع طارق كان دراميا وعبثيا بشكل فيه احتقار لذكاء كلينا. كان يحاول الاحتفاظ بي عند أطراف أصابعه، على حافة الماء دون أن أبتل. في لحظات كثيرة على مدار علاقتنا كنت أسعى للغرق وكان طارق هو من يلجم حيواني الثائر. في لحظات كثيرة شعرت بدنس الخطيئة يمس ثوبي الطاهر لأنها غزت أفكاري ولوثت أحلامي. نعم كنت أنعم بحماقة الرغبة في تطهير الأفكار والأحلام وكنت أشعر بالإثم لو مر طارق بخيالي.

ابنتي عادت لتحفظها تماما تجاه هذه الرحلة. كانت رغبة زوجي. رغم أننا لا نقضي الصيف إلا في البيت مع إجازة سريعة خارج مصر. لا يستمتع كثيرا بالتواجد مع العامة ومهما هربنا منهم لاحقونا كما يحلو له القول. وضعت ملف الاغتصاب على البلاكبيري. لم اعتد على تحرير الملفات على الهاتف، لكنني تعلمت أن أخط عليه أفكارا بين وقت وآخر كيلا تضيع مني. شعرت به يراقبني ويداعب الأولاد بعبارات مرحة جعلت الأجواء مريحة داخل السيارة. كان يحب قيادة السيارة كما يحب قيادة امرأته. أحيانا كان يقارنني بالسيارة وكنت أجدها مقارنة غير جيدة.

كتبت العبارة التالية وأنا في السيارة:

"الاغتصاب حالة من الاعتداء على الجسد تشبه في ذلك الانتهاك والتعذيب والضرب والقتل. وارتباط الاغتصاب بالجنس مع ما في ذلك من تعقيد تداخل الألم مع المتعة لا ينفي طبيعته من حيث أنه اعتداء صريح. وسوف نكتفي هنا بالحديث عن حالات الاغتصاب التي تقع المرأة البالغة ضحية لها. لم يهتم الأدب الفرنسي في القرن العشرين ببحث مسألة الاغتصاب إلا في حدود الحديث عن الحرب وما يرتبط بها من مآس وكوارث، يبدو الاغتصاب مجرد حالة منها. من بين الكتاب الذين ذكروا الاغتصاب المرتبط بالحرب..."

سألني عما أكتبه. أخبرته. أبدت ابنتي دهشتها. شعرت أن الموضوع غير مناسب للطرح أمام أولادي. نظر إلي زوجي متفحصا من خلال زجاج نظارته الشمسية المعتم، وحملق في وجهي قبل أن يهبط بنظره إلى صدري. ارتبكت وشعرت كأنه يلومني على شيء ما. تماسكت وأخذت نفسا طويلا وتظاهرت أنني أكمل ما أفعل وما كنت أفعل.

كان البيت مطلا على شاطئ خاص. العزلة عن العامة لها مزاياها الكبيرة. كلما صعدت إلى الأعلى كلما خف الزحام من حولك. لا أنكر متعة الخدمات السريعة، الحلول العاجلة، الخيارات المتعددة. كان زوجي يحمل كود المرور من أبواب كثيرة.

كانت مديرة المنزل في استقبالنا على الباب. سيدة وقور موظفة سابقة باوتيل خمس نجوم. لم أكن في حياتي من محبي أن تزاحمني مديرة منزل أو شيف في مساحتي الخاصة، وعانيت كثيرا من انتقادات حماتي ضد توجهاتي بأداء أعمال البيت بنفسي. كانت تتربص بي عند كل منحنى تعب أو قلة حيلة.

أغلقت خلفي باب الحمام واخترت دوشا سريعا متجاهلة الجاكوزي والبانيو الكينج سايز. ابنتي أشرق وجهها الجميل بابتسامة رضا لم أرها من وقت لا أذكر مداه. من بين كل البشر، لم يستطع أحد انتشالها من اللجة سوى والدها.

انضم إلينا زوجي إلى الشرفة وانخرط في حديث جاد مع ابنته حول الأساليب المختلفة لعمل دراسة جدوى لأي فكرة أو مشروع. أخرج من جيبه الآي فون، وشرع يشرح بتفصيل وأصابعه تلامس الشاشة وكأنه يداعب جسدا ما. رؤية الآيفون أشعرتني بصداع مفاجيء في عيني. انسحبت معلنة تعبي. كانت مدام سميرة تعد لنا وجبة خفيفة بمساعدة خادمة سودانية. تحدثت حديثا قصيرا مع ابني. كان يرتب أشياءه في الدولاب. شعر بكربي.

سألني "ايه؟ المكان مش عاجبك؟" تصنعت المرح لكنه لم يخدع وأخذني بين ذراعيه قائلا "لازم تكوني مبسوطة." حضنه نقل إلي طاقة إيجابية وشعرت بتحسن في مزاجي على الفور.

مديحة – مسك الختام 1

الآنسة مديحة محط احترام الأهل والجيران والزملاء. الكل يرى فيها نموذج الجيل الجديد الواعد المتعلم. تخرجت مديحة من مدرسة المعلمات منذ أقل من سنة وتعينت في مدرسة إلزامية للبنات بالضاهر. كانت تقطع الطريق من بيتها إلى مقر عملها في الترام. ولم تتعرض للمضايقات المعتادة التي تشكو منها السيدات، خاصة ممن تخلين عن الیشمك العثماني وتبنين مظهرا مصريا عصريا مثل الآنسة مديحة بنت موظف وزارة الحقانية الذي يمتلك في بيته الصغير ثروة من الكتب التي اقتناها عبر السنوات بفضل التدبير الجيد للست مجيدة زوجته الطيبة الصبورة التي لم تتوان عن توفير الملاليم والقروش كي يتمكن زوجها الحبيب من شراء الكتب التي يرغب في قراءتها. وقد نقل الأب حب القراءة إلى ولديه مديحة وسعيد. إضافة إلى إجادة سعيد للغة الإنجليزية والفرنسية بفضل نبوغه في اللغات وتبني مدرسته لهذا النبوغ وحصوله الدائم على كتب بالإنجليزية والفرنسية وإضافة عيون الأدب البريطاني والفرنسي بلغة مبسطة للنشء إلى مكتبة حامد أفندي.

الإسكندرية (مِلح)

البحر يغري بأشياء كثيرة من بينها الغرق. الدخول بين طيات مياهه والغوص داخلها والذوبان فيها. البقاء في المسكن الأبدي اللزج. كحل وحيد لحياة تصل إلى منتهاها أو إلى حائط سد. البحر يمتد أمامي كصفحة بيضاء تدعوني للدخول فيه وخلع كل الماضي على عتباته. تدعوني لخلق حياة أخرى في عالم جديد. جسدي يتعرض للشمس للمرة الأولى. أستغرب ذراعي رجلي رقبتي أكتافي أخجل من أردافي فيهما شيء لا يليق بي كأم وكأستاذة جامعية. نداء الماء والهواء والدفء أقوى. أريد أن أتسلل إلى الشاطئ من مكمني. لا أملك رفاهية أن يراني أحد. ابنتي قد تتبرأ مني لو رأتني بمايوه حتى في غيبة غير المحارم. أتوق إلى أن يلمس جسدي الماء.

"متخافيش."

لم يمسك يدي كما تمنيت لكنني، ولاثبات أن ثقته في محلها، وضعت رأسي في الماء دون أن أغمض عيني. كررتها مرات عدة كي أسمع منه عبارات التشجيع. كنت أحب السباحة معه. أحلق حوله كفرخ صغير لا يريد أن يبتعد عن أمه. كان رفاق اللعب كثيرا ما يحتلون الفراغ بيني وبينه. لكنني كنت متأكدة أن الله يرعانا وسيجمعنا معا.

الشمس حارقة. لسعتها تنفذ من مسام الجلد فتوقظ سبات السنين. حملت في قلبي شوقا طويلا للسعة الشمس. اقتربت من حافة الماء. الماء بارد. يضرب قدمي بشراسة لذيذة تتحد مع حرارة الشمس فتحيلني إلى كائن ناري. لم أعد أخاف من السمار. لا أجزع من التجاعيد الصغيرة حول الفم. أخطو إلى داخل البحر. يسحبني الموج بدهاء. أشعر به وأستسلم له. رجلاي تبتلان برذاذ الماء المالح. لسعة الشمس وقساوة الماء المالح تقيمان في جسدي حياة أخرى. قلبي يستيقظ تحت رحمتهما. أرفع عيني إلى النور بينما يبتل جسدي أكثر بماء البحر. تأتيني الموجات من كل الجهات. تعابثني وأقبل غزوها لخلايا جسدي. أبسطه على سطح الماء. أحرك ذراعي ورجلاي. افتحها وأضمها. على استحياء. يتسلل الماء إلى جسدي ويعريه. أتشجع واترك له العنان.

سمعت صوتا أو أصواتا. أدركت أنني أرتدي مايوه لا يسترني ولا حتى بقدر مقبول. ابني قادم نحوي. أشير له. يسبح نحوي في همة. نضحك معا. نسبح معا. يقول لي إني حلوة. يقترح أن نتسابق. يسبقني كثيرا. أعرقله وأشد قدمه. يتهمني بالغش. نضحك أكثر. يعلمني بعض الحركات. أقلده كمهرج في سيرك. تزداد ضحكاته. نتقافز في الماء كسمك أخرق. هو قرموط وأنا سمكة المهرج. الموج يفقدني التوازن أدخل بين طياته وأتشقلب. أنا دولفين. يحضر ابني لوح تزلج. يحتضنه ويفرد جسمه. يقترح أن أفعل مثله. أتردد.

"متخافيش. همسك ايدك."

أحتضن اللوح بوجل. يعيد علي.

"متخافيش."

في المساء ما زالت ابنتي ممسكة بالآيباد. أسيرة الأجهزة مثل أبيها. كيف لم أر الشبه الكبير بينهما؟ إنها منه وهو منها وما أنا سوى وعاء نقلها إليه من عالم الغيب. يتحدث معها كثيرا الآن. أنا وابني نتشارك سر السباحة عصرا معا. نتضاحك على ما ارتكبناه من حماقات مائية. يعدني بسباق شرس في اليوم التالي. أشعر بحيوية كبيرة.

"ظهرك مقشر محتاج كريم ترطيب."

لمسته كملح على جرح. كتمت صرختي. خرجت من المطبخ سريعا. جفل ابني. شاهدت في عينيه سؤالا مكتوما. اختبأت في الحمام. ارتديت ثوبا طويلا قاتما. خرجت بعد أن تأكدت أن كل استدارات جسدي قد دفنت.

كان ينتظرني في الفراش. كان يحملق في وأنا أرتب الملابس المبعثرة على الكرسي. لا أريد لأحد أن يلمسها. جلست أمام المرآة. حاولت ألا أنظر للمرأة قبالتي. كانت امرأة مهزومة. امرأة جريحة وجرحها غائر. تشاغلت بالبلاكبيري. لمست شاشته داعية الله أن تخرجني من اللحظة التي أنا فيها. ينتظرني صامتا. لا أرى ما يفعل. الرسائل كثيرة التي لم تقرأ بعد. مؤتمر صوفيا قبل ورقتي. أرسلوا تفاصيل السفر وحجز الأوتيل. لم أخبره بعد. لا أريد أن تلعنني الملائكة. أنت رب القلوب فقلب قلبي الوجهة التي ترضاها. أضع الكريم على وجنتي. بهما حمار لطيف من أثر الشمس. تخيلت عالما مختلفا فيه زوج وزوجة وطفلان يلهوان في الماء.

خلع بيجامته واستلقى عاري الصدر. دعاني. تظاهرت أنني أكتب شيئا مهما. قام إليّ. أعرف أن الليلة هي ليلة الذبح. انحنى على الموبايل وانتزعه بهدوء من يدي. تبعته إلى الفراش. كان يمسك حبلا غير مرئي. لم أرد خلع ملابسي. لم يتكلم. لم يقل شيئا. لا شيء. تناول ما يريده في قضمة واحدة. تعثرت بين يديه. حاولت التحليق بعيدا عن جسدي. رمى بالثوب بعيدا. لم يمنحني نفسه. انتزع مني نفسي. بكيت وهو يحاول القبض على تلابيب نشوته. رددت على مسامعه الرسالة الفاحشة. لوهلة بدا أنه لم يسمع لشدة انغماسه في لذته. أعدت عليه الكلمات هذه المرة بصوت الألم. مرت السكين داخل قلبي. دفعني بعيدا وهجر الفراش.

الساحل الجديد فرصة لا تعوض لكل من يبحث عن الراحة والاغتسال من التعب والارهاق. في الشرفة وحيدة مع كوب شاي استغرقت في تأمل مفتعل لصفحة الماء. لا أدري كيف أستطيع مواصلة عبث حياتي. السؤال حصل على إجابة حين طالعتني صورة طارق على شاشة البلاكبيري. يريد الاطمئنان علي. وعلى الأولاد. يريد تهنئتي على قبولي بالجامعة الأجنبية. يريد تقديمي على مذبح العشق والهوى. دفعته هو الآخر بعيدا بشكر محايد وعبارات رسمية الطابع. لعبت دوري كأستاذة جامعية وقورة حرم أحد أكبر رجال الأعمال. لماذا العبث مع القدر؟

زوجي كان يتابعني بنظراته. يبحث عن مرفأ لرجولته المهانة. تركته يتجرع إهانته على مهل. ابنتي تتحدث على هاتف والدها مع أحدهم. تعطي أوامر خاصة بالعمل. صوتها يكاد يطابق صوت أبيها. أحتمي في المطبخ من وطأة تواجدي معه. المديرة سيدة لا تتدخل فيما لا يعنيها. تثني على ذوقي في اختيار قائمة الطعام. أعرض عليها المشاركة. تنظر إلي في استغراب. لا أكرر العرض. الخادمة السودانية تراقبني عن كثب. تقترب مني وتسألني عما إذا كنت أعمل حقا بالجامعة. تتمنى اللحاق بالجامعة. تدرس في إحدى مدارس اللاجئين. وتعمل بالصيف. أجدها لطيفة وأحاول ألا أبكي معها وهي تقص علي كيف هربت مع أخيها من القتل والحرب.

"عايز أكلمك."

تبعته إلى الغرفة. أغلق الباب. كان وسيما مثل كل يوم. يعلن هزيمتي كل يوم. جلس بعيدا. حاولت السيطرة على انفعالاتي. قبل أن يتكلم كنت قد بدأت في البكاء.

قدم لي المناديل الورقية. لم تكن دموعا من أجله. كانت دموعا حبيسة من يوم ضاع مني مجدي ورحل بعيدا مخلفا وراءه حفنة من أحلام ذابلة. حان وقت خروجها من تابوتها. حان وقت إكرامها. اعتذر عما رأيته على هاتفه. اعتذر لأول مرة في حياته. زوجي لا يعرف الاعتذار لأنه قوي. ما رأيته كان غلطة ولن تتكرر. وعد أم عهد؟ وكل الباقي؟ ما لم ينقله لي الهاتف. وسنوات الخداع وتجرع المر ليلة بعد ليلة؟ وجسدي الذي ذبح مئات المرات فداء لرغباته؟ وستري الذي انتهك في فراش الغريبات؟ وكل الباقي؟

عرض عليّ الخروج للسهر. مكان لطيف. ارتدي ثوبا أنيقا. الثوب هنا. هدية. مفاجأة. معه حقيبته وحذاؤه وطقم الألماس. من السهل محو الخطايا بدفتر الشيكات. بحثت عن شال يداري الأكتاف العارية. احترت أي إيشارب يناسب الطقم المميز. قال لي أريدك هكذا الليلة. هززت رأسي. "مقدرش أخرج بشعري." مسح على رأسي. يد السلام؟ هززت رأسي. أحاط كتفي ومال علي هامسا أنه يريد عروسه الحلوة مرة ثانية. زوجي لم يكن ينعتني بالحلوة تقريبا أبدا. زوجي لم يكن يتحدث معي كامرأة. مرت لمسته على رأسي كالثلج.

ابنتي حملقت في. كانت فزعة بل ملتاعة وكأنها ترى أما أخرى. ابني أثنى على ذوق أبيه. لم ينتبه إلى رأسي الحاسر. كنت أشعر بالعري. ابنتي حاولت إثنائي عن الخروج بهذا الشكل وهي تنظر إلى أبيها لا إليّ. "أنت اللي هيتحاسب عالإثم ده." اقترب منها أبوها مبتسما. ربت على كتفها. "إذن تمن لماما سهرة سعيدة وسيبي حمل الإثم علي." حاولت الابتسام. لا أذكر أنني رأيتها تبتسم منذ زمن طويل. مدت يدها إلى القرط الغالي وقالت "جميل."

في السيارة تدثرت بالشال كي أخفي ما ظهر من كتفي. لا أريد أن أعي وجودي كأنثى. أريد أن أعود شخصا بلا نوع.

مديحة – مسك الختام 2

كانت الآنسة مديحة محط إعجاب واحترام زملائها في المدرسة التي عينت فيها مدرسة للغة الفرنسية. كان نشاطها وجدتها واجتهادها في العمل أسبابا أساسية لثقة زميلاتها وطالباتها فيها. في صباح ذلك اليوم استدعتها أبلة الناظرة وحدثتها عن أمر كان يشغل بال الكثيرات.

"هناك ندوة بمبرة محمد علي تلقي فيها هدى هانم شعراوي حديثا هاما يلخص نتيجة زيارتها لأوروبا لعرض القضية المصرية وقد طلب مني اختيار مدرسة تمثل المدرسة ولم أجد أفضل منك."

الآنسة مديحة لم تكد تصدق ما سمعت.

الإسكندرية (شوكولاته)

أدار زوجي أغاني حب بلاستيكية. لا أعيها ولا أهتم لها. حب القرن الواحد والعشرين. تكلم كثيرا وكأنه يريد ملء الفراغات التي خلفتها الأسئلة المتراكمة. أحتمي بظلام السيارة من إحساسي أنني مكشوفة. راندا كانت دائما تقول إن الرعيل الأول من المحجبات فعلن ذلك بعد المرور بتجربة الجسد غير الحبيس وكان دافعهن الأصلي هو مرضاة الله ثم أعقبتهن أجيال من النساء لم تخبر جسدها سوى وهو ذليل لذلك صار الحجاب جزءا من عار الجسد الأنثوي.

كنت أحاججها "العفة والحشمة هما الغرض الأساسي."

"عفة الرجل ولا عفة المرأة؟"

"الاتنين."

"وهل ده خلا زوج أي ست محجبة أقل فجرا مما كان؟ هل انتشار الحجاب قلل نسبة الخطيئة في المجتمع؟"

"المقارنة لا محل لها لأن العفة مش قاصرة على اللي لابسة الحجاب بس."

"آدي أنت اعترفت إن مفيش رابط شرطي بين الحجاب والعفة."

لكنني أشعر الآن أنني مكشوفة. معرضة للخطر. أتحاشى النور كوطواط تعثر خارج كهفه. راندا ليست دائما على حق. زوجي يبتسم وهو يتكلم. ابتسامته حلوة وخادعة. تخيفني. أفضله كما كان دون ابتسام. يتحدث عن الليل والسهر وأغاني الهوى والحب الذي لا يشترى بالمال. يتحدث عن رجولته. يذكرني بفحولته. يتحدث عن أسرته الغالية على قلبه. لا يتحدث عني. لا ينطق اسمي. نمر من طرق السعادة داخل سيارته الفارهة. يفتحون له ولي الباب. أهذا قصر الأحلام؟

حاولت تجاهل النظرات المشرعة نحوي. الفضيحة يمكن تسجيلها بكليك واحدة من أصبع غادر. زوجي يضع يدا واثقة أسفل ظهري ويقودني إلى الطاولة. معدتي تنقبض. أجلس على مقعد قبالته. لابد أن أواجه نظراته. يحملق في شفتي بشكل واضح. أخاف من عينيه. ما زال جرحي فاغرا فاه. لحم مشوي هو ما اشتهاه. طلبت طبقا واحدا يعيدني إلى ركن النساك. كنت أريد التوحد مع ذاتي المنكمشة. الطعام دخيل على أجهزة جسمي المستنفرة.

"مبتاكليش ليه؟ الأكل حلو اوي." صوته ناعم كالقطيفة. يريدني أن أنزلق. يؤكد أن شعري رائع. "بتفكريني بأيام نيس."

"شعري كان أطول."

لماذا يستدعي نيس الآن؟ كنت امرأة أخرى. يعطيني قطعة حلوى. أفتح فمي. يضحك ويجذبها بسرعة كي يضعها في فمه. "عايز أدوق طعم بقك." أجفل. تنكمش المرأة الحزينة داخلي. لا يصلها نداؤه. ماذا يحاول أن يفعل؟ يحتسي مشروبه. عيناه تدوران. أشاهد أجسادا رخصة حولنا. الأخرى تجلس قريبا منه. تلقي بستائر شعرها المستعار على جانب وجهها. تخفي به كتفا عاريا وصدرا مكشوفا. تسدد نحوه سهام الغواية. يبرع زوجي في تلقفها. لكنه لا يملك منعها من النفاذ إلى قلبي الميت. يترك لعينيه العنان لحظة واحدة قبل أن يعيد النظر داخل دائرتنا. أزيح خصلة من شعري دخلت عيني. أشعر بنار تتحرك حثيثا إلى كامل جسدي. لا أريدك أن تلمسني بعد اليوم. صرخت بها في صمت. رسمت فوق الصرخة ابتسامة ملونة بطعم الشوكولاته التي أتناولها. أمسك بهاتفه. نظر إليه وفرح آثم يتراقص على ملامح وجهه. إنه يمارس الخيانة في مطعم الصفوة. لن يقبض عليه أحد بذات الفعل. كلهم خطائون. ما من يد طاهرة هنا تحفر خطاياهم على الأرض. يصفقون له وهو يخون. وأنا البطلة المهزومة.

خلعت الشال من فوق كتفي. تخلصت من ثقله. تحررت أكتافي. نظر إليّ زوجي بحيرة. ألا تعرف أنني سبحت اليوم في البحر مع ابني؟ ألا تعرف أنني قرأت لدو ساد وأعرف أنكم جميعا دو ساد؟

"الفضيلة ليست سوى حالة من اللافعل والسكون لا يمكن أن تؤدي أبدا إلى السعادة."

ألا تعرف أنني حرمت نفسي من الشوكولاته أياما وليال استجداء لاستدارة وسط ونحافة أرداف؟ ألا تدري أنني اشتهيت رجلا سواك وارتعشت من أجله في أحلامي؟ ألا تدري أن قلبي معلق بكلمة رحمة أنتظرها من ربي؟

قدم لي كأسا. رفضته. ربت على يدي. سحبتها. نظر إلى الهاتف. الضوء يتراقص على ملامحه فأرى شرا يتسلل من تحت جلده إلى شفاهه. تسكن شفتيه ابتسامة شيطان مرح. صاحبة الجدائل المستعارة تعابث هاتفها هي الأخرى. الخنجر اخترق كل مسامي. أشعر بالاختناق. أسعل بصوت مسموع. يهرع نحوي النادل. زوجي يضع يدا على كتفي. أشعر بالموت يتسلل إلى ظهري. أعجز عن الحركة. يعود النادل بماء طبيعي مثلج. يدخل جوفي كشلال هادر. يعود زوجي إلى هاتفه. يلمسه بأصابعه. أطلب منه أن نقوم.

"هكمل الكاس ونقوم."

يصب كأسا جديدة يضيف إليها كثيرا من الصودا. "اشربي معايا."

أضحك. "أنت صدقت إن الإثم عليك لوحدك؟"

أحيط الكأس المحرم بأصابعي. الرائحة فجة. يخيل إلي أنني أسمع الكليك الفاضحة. الأخرى تتحرك. تتلوى ساقاها. تزحف إلى مائدتنا وتحيطها من كل الجهات. أرى أن ساقيها قد لوحهما البرونزاج القاتم. الدمية البلاستيكية خالية من العيوب ومن الحياة. ترفع كأسها ويرفع زوجي كأسه. ألمح غمزتها. يضع زوجي كأسه بعد رشفة وينظر على شاشة الهاتف. يزيح صورة بإصبعه ويغلق الهاتف. يعود إليّ من رحلة الخطيئة. تزداد ابتسامته عرضا. "اشربي. مش هتندمي." يقترب بوجهه مني. أينوي التهامي على هذه المائدة؟ "لو شربتي، هدخلك دنيا الليلة." يتحدث إلي بكلمات صريحة. لم تكن لأذني أنا، بل كانت لمن تسللت إلى هاتفه. تنهض الأخرى وتقترب من طاولتنا، تترك رائحة عفن واضحة. أسعل بعد أول شفطة. أخرج من رحمة الله بإرادتي البشرية.

في السيارة تغلبني الرغبة في البكاء فأبدأ في الضحك. شعري يخرج من عقاله ويطير مع حركة الهواء. زوجي سعيد. هزيمتي مزدوجة. "من شرب الخمر سقاه الله من حميم جهنم." أريد أن أرقص رقصة الذبيحة. هذا ما تبقى لي. يرن الهاتف. الوقت متأخر. أمد يدي إلى الحقيبة. لو كان طارق سأؤكد له أنني سأكون عاهرة الليلة ولن أنجو من الدنس. لا أريد النجاة. نجوى.

"أنت فين يا بنتي؟ معقولة تختفي كدة ولا حس ولا خبر؟"

أضحك معها وأمازحها. نجوى تتعجب من مزاجي. أفسر لها "أنتم السابقون ونحن اللاحقون." نجوى لا تفهم.

"اسمعي. أنا عاملة حفلة كبيرة بمناسبة نجاح ابني. تعالي أنت وولادك. طبعا لو الباشمهندس عايز يجي يشرف. الحفلة دي هتبقى أحلى حاجة حصلت السنة دي."

أدخل في عالم آخر اصطحبتني إليه الصهباء. يحملني زوجي إلى داخل البيت مرتين. أعود جريا إلى السيارة.

"مش ممكن. عمري ما شُفت واحدة ممكن تسكر من الصودا."

يحاول أن يحتضنني. أشعر بالشوك يدمي صدري وبطني وظهري وأردافي. أهرب من حضنه. يلحقني ضاحكا. يرن هاتفه بصوت مكتوم. يفلتني على الفور. يبتعد. أقف في ظلمة الممر وحيدة. ألن ندخل فراش الزوجية معا؟ أغلق على نفسي باب الحمام. أخلع الثوب الغالي. أرمي القرط الماسي. أتجرد من أشيائه. أفرد شعري. أنظر إلى جسدي. لم يسعد هذا الجسد يوما. لم يشعر بقيمته. كنت أرتدي شورتا طويلا في حصة الألعاب. كانت البنات تقول لي إن أردافي ممتلئة. مالت علي إيمان يوما وقالت لي "متزعليش. دول غيرانيين منك. الولاد بيحبوا الأرداف الكبيرة والرجلين المدورة." لم أعبأ لاستدارات جسمي. كنت أريد أن أسمع كلمات الاستحسان من مدموازيل أوديت. لم تحدثني يوما عن أردافي. بل كانت تثني على مثابرتي في تمارين الإحماء وسرعتي الجيدة في الجري. كانت تشجعني على التدرب على الباسكيت والفولي. لم يذكر أحد جسدي بسوء سوى رفيقات الدراسة. مجدي كان يحدثني عن العلم. كان يقول إنه سيصبح طبيبا وأنه سيلف العالم بحثا عن علاج لمرض مستعص. سيفك شفرة المرض والشفاء وسيعيد للإنسان إنسانيته. كان يراني جسدا نقيا لا يمس. كنت أتوق إلى لمسة من يده. أحلم به ممسكا يدي. وأحيانا كنت أراه بعين الخيال يقبل وجنتي. كنت أظن أن تلك القبلة ستكون بابا لسعادة الجسد. عندما كنت بانتظاره، كنت أرتب ملابسي وأكويها جيدا. أمي كانت تقول عني حنبلية. كنت أحفظ الجسد الذي ملكته إياه داخل ملابس طاهرة. كنت أنظف جسدي كثيرا. حتى في الليالي الباردة كنت أحرص على دوش المساء.

المرآة العريضة تكشف لي الجسد السجين من كافة الجوانب. أرى صدري وقد هبط كثيرا عما كنت أتذكره. بطني حملت طفلين. وجهي باك من أثر العشاء في مطعم الصفوة. ربما يجب أن أفكر في استبدال اللحم بالسليكون أو الفيلر أو الكولاجين أو البوتوكس. ربما عليّ استشارة نجوى. ربما أسافر إلى لبنان مثلها قريبا. كل النساء اللاتي يعشن في دنس خيانة الزوج عليهن الهجرة إلى عالم الجمال الصناعي. عليهن خلق فرص مزيفة للسعادة. بجسد مزيف وابتسامات مزيفة. يجب أن أشتري هدية نجاح لابن نجوى. يجب أن أهنئها على زواج زوجها من أخرى. على الأقل لم يمارس الفعل الفاضح أمام زوجته في مطعم الصفوة المغفورة لها خطاياها.

فراش الزوجية مغروس في الدم الأحمر اللزج. محاط من كل جانب بزهور توليب ذابلة. مدام سميرة نسيت أن تغيرها. أرتديت ثوبا قصيرا لا يستر شيئا لأنه لا يوجد ما يمكن ستره. دخلت الفراش. له ضمة لا نجاة منها. أغمضت عيني. أشم رائحة زوجي. نفاذة حادة جارحة. السكين تعمل في جسدي. في رقبتي وصدري وذراعي وساقي. أغمض عيني وأتخيل نفسي في مكان آخر. أبدأ في الرحيل. يتركني أفلت كي أصل إلى الضفة الأخرى. ستحملني سفينة رع المقدسة طوال الليل. لن أجزع لأن قلبي النقي سيوزن مع ريشة ماعت. سأفوز في الاختبار. كنت امرأة صالحة قبل الليلة. هو سيتحمل الإثم. كله. أتمرغ بين ذراعيه. أجدها بيننا. الأخرى البلاستيكية. تنتفخ كبالونة بشرية. تصبح ذراعاها بحجم قدمي فيل. وجهها يتمدد حولنا وينفث سما أراه كأميبا ملونة تنقسم أمامي في الهواء. أبكي خوفا. يضمني حتى يكاد يخنقني. يدوس علي بفحولته. أحاول التملص من جسدي. يدفعني في طريق شبقه. أرمح فيه لاهية عابثة. يمد يدا وينزع مني عذريتي مرة واحدة. يستأصل معها كل أنوثتي ويصبح جسدي أجوفا. أصرخ من النشوة الكبرى. يصيح هو معلنا انتصاره

"قلت لك هدخلك دنيا عمرك ما عرفتيها!"

الشمس تسللت دون أن أدري عبر نسيج الستارة البيضاء. لم تصل إلى الفراش ولن تفعل. تمرغت وسط روائحه وسوائله وعطره. ترك أثرا غائرا على كل بقعة في الفراش الكبير. فتحت نفسي له أمس، ربما للمرة الأولى. ما عقاب

شارب الخمر؟ لا تلعني يا رب. كان الصراط ضيقا وعرا. سمعت صوته يقترب. أغمضت عيني. أخاف منه الآن أكثر من أي زمن مضى. رائحة صابون القرنفل والزعتر تفوح من كل جسده. دخل الفراش الواسع. كان عاريا. أمسك بي. كان يملك جسدي. شيء ما في تناول الكأس المحرم سمح له بذلك. قسيمة الزواج لم تمنحه هذا الحق، الخطيئة فعلت. طلب مني أن نكمل ما بدأناه أمس.

وسوس لي في أذني بكلمات مخدرة. "عمري ما سمعتك بتصرخي زي ما صرخت امبارح." كان منتصرا.

بكيت في الوسادة. طلب مني أن أقدم له متعة خاصة. لم أقل نعم. لم يعبأ. وضع رأسي حيث أمر. الشرنقة تتقطع والعذراء تموت. أتولد الفراشة؟ طعم متعته قوي قاس حريف صارم متواصل مع داخله المظلم. جرني معه إلى مملكة هادس. خفت. جفلت. تشبثت به. عبث بفمي كيفما شاء. طلب مني أن أعلن سيادته علي وعلى جسدي جهارا. صوتي لم يطاوعني. مد يده إلى داخلي وكرر الأمر. خفت أن يصل صوتي للأولاد. خرج خافتا. جسدي كان حبيسا. كان يمتطيه كيفما شاء. شرطه الانصياع التام.

"استرخي. متشديش عضلاتك. ومش هتحسي بأي وجع. ده لذيذ اوي. مش هتشبعي منه."

كان يشطرني نصفين بتؤدة ببطء وهو يضع كامل رجولته داخلي. وهو يرفع عني أستاري كلها. لم أقاوم. الذكر عانق الأنثى فاستسلمت. راقت له وداعتي، فكافأني بفورة شبق مجنونة.

بعد الغداء اقترح ابني أن ننزل البحر ثانية. منة لا تتحدث معي. تنظر إلي كما ينظرون إلى مجزوم شفقة وجزعا. لم تعد معنا. صارت مع أرقامها وآيبادها. لم أكن أعرف إن كان يجب أن أحمد الله على ما وصلت إليه أم يجب أن أخشى مصارعة نسختين من زوجي. راندا اتصلت بي بينما كنت أحاول استيعاب ما حصل لي ليلة أمس وصباح اليوم.

"مش عايزة تكلميني ولا ايه؟

دينا أنت غالية علي اوي. جايز متعرفيش بس أنت أهم صديقة عندي."

أهم صديقة عند راندا؟ راندا القوية الواثقة الناجحة؟ شعرت بحنان بالغ نحوها. صداقتنا مرت أمام عيني في لحظة. حياتي. ربما تكون راندا هي الشاهد الحي على مشوار حياتي. سألتها عن أخبارها. حدثتني عن رحلة عمل إلى مؤتمر عالمي في آسيا، عن صراعات الديكة الأكاديميين وعن قرارها بقبول عرض أستاذ زائر لمدة عام في أمريكا. استمعت إليها بنصف أذن.

سألتها من حيث لا أدري "راندا، عمرك جربت الجنس من ورا؟"

ضحكت طويلا. هل كشفت عاري بنفسي؟

"معقولة يا دينا؟ ليه بتسألي يا شقية؟"

"مش فاهمة. سؤال غريب ولا محدش محترم بيعمله. هو حرام؟"

"وايه علاقته بالاحترام من عدمه؟ دي مسألة أذواق. أما الحرام والحلال فغيري يفتي لك فيها. قولي لي. عجبك؟"

كانت مدام سميرة تمر من أمامي. شعرت أنها تتأملني سرا.

"ردي على سؤالي يا رندا."

"أوك. ممكن تقولي إني جربته على خفيف. بفضل المداعبة بس. أصل أنا مش حمل التقل في المكان ده."

وضحكت. راندا كانت نحيفة. كررت سؤالها "عجبك ولا لسة بتشاوري عقلك؟"

ضحكت هذه المرة. شيء ما أزيح عن صدري. استمعت منها ولم أحك لها. خفت أن يعيد الحكي اللحظة مرة ثانية.

قالت لي "دينا. متخافيش تكوني واحدة ست. مفيش جريمة في الموضوع. ويا ريت تطلقي جوزك من أمه عشان تعرفي تعيشي معاه بجد."

قرر زوجي نزول البحر معنا. طلب من منة اصطحابنا. وافقت على مقترحه في صمت. صار مرشدها في حياتها الجديدة. اقترحت عليها ارتداء ملابس أقل قتامة واتساعا، رفضت. أعطاها والدها تي شيرت أبيض فضفاضا وبنطلون جينز. قاومت قليلا ثم وافقت على ارتدائهما. لأول مرة من سنوات أرى ابنتي الجميلة في شيء ليس لونه أسود أو كحلي. أخوها صفق لها مهنئا نهاية عصر الحداد.

زوجي كان وسيما قويا جسده مهيب تحت الشمس الحارقة. دعك لنا الكريم أنا وابني. لمسة يده على ظهري كانت لاهبة مثل الشمس. كنت أشعر بوهن شديد. لكنني أردت الدخول في الماء. طهارتي لن تتم إلا بعد أن يغمرني البحر بين أحضانه. شيء ما تحول فيّ. وللأبد. شيء فقد. ودعت طفولتي اليوم. حل زمن المرأة. البحر مختلف اليوم وزوجي معنا عما كان يوم أمس مع ابني. أدهم أدرك هذا الأمر، فلم يعرض عليّ اللعب معه على لوح التزلج. منة اكتفت بالجلوس والتأمل. وفعلت شيئا نسيت أنها قادرة عليه. تكلمت معنا بصوت عال كي نسمعها مع ضجيج الأمواج وهمس الرياح. دفعني زوجي أمامه وهو يسبح. تسللت يده على ساقي. كان يحاول أن يكون مرحا ربما. قررت مجاراته في اللعبة. اقترح ابني سباقا. وافقت رغم علمي أني سأكون الأخيرة. سبحت بهمة دون أن أنظر إليهما. استدعيت قوة جسدية لم أعهدها في نفسي. حاولت ملء رئتي بالأكسجين قدر الإمكان. شعرت بالماء يحملني يدعمني في مشواري. وصلت إلى نقطة النهاية. تلفت حولي. كنت الفائزة.

كانت المشويات البحرية لذيذة. زوجي وعد الأولاد بفسحة ليلية ومشاهدة فيلم سينمائي. منة هزت رأسها رافضة السينما. ابتسم زوجي في ثقة وقال لها إنه فيلم يستحق المشاهدة.

ردت عليه مقولتها المقولبة "الفن حرام. وأنت عارف."

اتسعت ابتسامته. كان يلتهم الكابوريا المشوية في لذة. "الجمال من صنع ربنا. اللي يقول على الحاجة الجميلة حرام يبقى بيخالف صنع ربنا."

هزت رأسها في عناد "الحلال بين يا بابا. الست اللي بتطلع في السينما بترتكب معصية."

"والراجل؟"

"كمان بيرتكب معصية."

كان مبتسما وسعيدا بشكل واضح. "معاكي في دي."

لم يكن واضحا إن كان ساخرا أم جادا. كان ينظر إليّ في مكر. بعد فوزي في سباق السباحة الذي أعلم أنه فوز حصلت عليه بمساعدة من المتنافسين الآخرين، استعاد بعضا من روحه القديمة المتعالية. عاد إلى البيت وأخذ يجري مكالمات عمل ثم استعد للخروج للسهر مع الأولاد. كان متباعدا عني. وكنت شاكرة له هذه المسافة للتنفس. الآن على مائدة المشويات البحرية العريضة التي أعدتها لنا مدام سميرة عاودته نوبة الابتسام التي تخيفني أكثر مما تطمئنني.

"هنشوف فيلم ايه؟" سألت.

لم أكن أبحث عن إجابة للسؤال قدر بحثي عن فرصة كلام. ابتسم زوجي وهو يمصمص رجل كابوريا ضخمة.

"الولاد هيشوفوا فيلم انيمشن. احنا هندخل فيلم تاني."

"الأفضل ندخل كلنا نفس الفيلم."

أزاح رأبي بيده وهو يلقي ببقايا عظام الكابوريا المفتتة.

ابني اقترح اسما لفيلم نشاهده. "الريفيو عليه ممتازة. بيشرح ازاي بيكون الفرد الواحد قدام السيستم اللي بيتحكم في عقله وقراراته وهو بيخدعه بمظاهر حياة مريحة."

منة هزت رأسها في اعتراض صامت. استأذنت وقامت. لاحظت أن الشمس قد ردت بعضا من مظاهر الحياة إلى جسدها المدفون داخل أردية الذنب السرمدي.

عاودت ارتداء الإيشارب. اخترت واحدا بألوان جميلة فوق فستان آملت ألا يفضح عيوب الجسد. استيقاظ الجسد عملية مؤلمة جدا. كنت قد حضرت مرة مناقشة رسالة عن الرهبان في العصر الأول وكيف كانوا يأخذون جسدهم بالشدة والتعذيب لكبح جماحه. وقتها التفاصيل بدت لي لا إنسانية. الآن أتفهم تماما ما كانوا يقومون به. الساعة السادسة. طارق يتصل بي. رنة التلفون تطلع بصعوبة مختنقة من قلب حقيبة يدي.

"ازيك يا دكتورة؟"

لست فرحة كثيرا بسماع صوته. أشعر أنه حلم مثل باقي الأحلام التي تدخل حياتي كي تربكها. طلب مني الاتصال بالعميد لتعزيته في وفاة حماته.

"يا ريت لو هتكوني هنا الخميس. تيجي معانا العزا."

طارق يتأكد من تعبيد الطريق إلى الكرسي، أي كرسي وكل كرسي. لم يكن رجلا سيئا. أخبرته أن راندا ستذهب إلى أمريكا لمدة عام.

"عارف."

متأكدة أنه يعرف. لم أستطع معرفة انطباعه عن الأمر. زوجي أشار إليّ أن أنهي المكالمة وأتبعه.

طارق قال لي "لما ترجعي بالسلامة كلميني. لازم أشوفك ضروري."

شعرت بسخرية غامرة. طارق يلعب لعبته الخاصة ويمنحني دورا. سأؤديه وأرحل. ربما من غير شكر. لا أريد أن أللم قلبي مبعثرا على عتبة ما. وزوجي يلعب هو الآخر لعبته الخاصة. في عالمه لا وجود لرجل فاشل في زواجه. لا وجود لرجل مطلق. فقط الرجل المثالي سليل العائلة الكريمة. من يتحدث الكل عن نجاحه وسحره مع النساء. النجاح في عالمه لا يكتمل بدون نساء. الماركي دو ساد يؤكد أن الحق في المتعة يلغي كل اعتبار للآثار المترتبة عليها. كان زوجي من مريدي دو ساد دون أن يدري.

Dès qu'on accorde le droit à la jouissance, aucune considération portant sur les effets produits par la jouissance n'est recevable.

مديحة – مسك الختام 3

الآنسة مديحة لم تجد مكانا لها بسهولة في قاعة المبرة. كانت القاعة مزدحمة تماما. وجدت أخيرا كرسيا في آخر الصف الثاني فجلست عليه.

سمعت صوتا يقول: "معذرة يا آنسة. لا مؤاخذة. هذا الكرسي محجوز."

نظرت نحو محدثها. كان شابا في مطلع العشرين. مهندم المظهر حليق الشارب. يرتدي طربوشا مكويا. عيناه الواسعتان الصادقتان أربكتاها.

"آسفة. القاعة زحمة. واعتقدت إن الكرسي فاضي."

بدا على الشاب الارتباك. "أنا اللي آسف يا هانم. ممكن طبعا تتفضلي الكرسي. هروح أدور على واحد تاني. الحقيقة المكان ده كان محجوز لأختي."

مديحة وقفت، لكنه أشار لها بالجلوس. عاد بعد قليل حاملا كرسيا آخر. حاولت مديحة الانتقال إليه. طلب منها ألا تفعل. جلست وهي تشعر بخجل عظيم. رغم أنها فتاة عاملة إلا أنها لم تعتد الحديث مع الغرباء. الشاب يبدو عليه أنه ودود. بعد برهة تحدث إليها.

"أحرص دائما على حضور محاضرات هدى هانم شعراوي. وحضرتك؟"

أطرقت مديحة برأسها وتحدثت إليه دون أن تجرؤ على النظر إلى وجهه "الحقيقة دي أول مرة أحضر فيها لقاء مباشر مع هدى هانم شعراوي. لكني متابعة كتابتها في مجلة *L'Égyptienne* "

ابتسم الشاب "حضرتك بتقري فرنساوي؟"

تبتسم مديحة وتحاول النظر في وجهه بثبات.

"أنا مدرسة فرنساوي."

"تشرفنا يا فندم. اسمحي لي أعرفك بنفسي. اسمي رؤوف سالم. بشتغل في وزارة المرافق. عندي شهادة في الهندسة." تقدمت فتاة لطيفة. ترتدي بلوزة بأكمام طويلة وجوب مستقيمة تصل إلى الكاحل. "أختي فوقية." تعارف سريع قبل بدء المحاضرة.

أسرة الباشمهندس رؤوف تسكن بقرب الحي الذي تقطن فيه الآنسة مديحة. فوقية تدرس في التوجيهية. مديحة تشعر بألفة تجاهها وتجاه أخيها.

تدخل الآنسة سيزا نبراوي. ينتبه الحضور جميعا إلى ما ستقول.

الإسكندرية (سعادة)

منة دخلت مع أدهم قاعة السينما وبأيديهما جردلين ضخمين من البوب كورن. شدني زوجي من يدي. آلمتني قبضته. دخلنا صالة رقم ثلاثة. الفيلم كان يحكي قصة اكتشاف شاب لخطاب أرسل إلى جدته من أكثر من ستين عاما ولم يصلها أبدا. الجدة تعيش في بيت للعجزة وتعاني من أمراض الشيخوخة. يعطيها الخطاب فيعود الفيلم فلاش باك إلى أيام صباها عندما كانت تعيش قصة حب ووعد بالسعادة مع جندي رحل إلى الحرب وانقطعت أخباره.

كان فيلما حزينا وموجعا للقلب وجميلا. زوجي كان منبسط الأسارير ينظر نحوي ويسألني إن كنت بحاجة لشيء من وقت لآخر. يمسك بيدي أحيانا. يلمس كتفي أحيانا. ذراعه تلامسني أحيانا. وربما مال على أذني بتعليق على مشهد ما. أشعر أنه يؤدي دورا. لكنه دور يروق لي جدا. لم يتسلل نظره إلى هاتفه ولا مرة واحدة. عند نهاية الفيلم تناول يدي ونحن نخرج من الصالة المظلمة.

في طريق العودة للبيت. منة كانت سارحة. سألها والدها عن رأيها في الفيلم لم تجب سوى "كويس". أدهم كان مرحا كعادته بسيطا. حكى عن الفيلم والبحر وماتش كرة قدم مهم. والده انخرط معه في حديث كأنهما صديقين قديمين. فرحت لهما. تمنيت لو تمكنت من التحدث إلى منة بنفس الطريقة. تمنيت استعادتها. عندما كانت طفلة كانت تتكلم كثيرا عند العودة من المدرسة. تقص أحداث يومها في شكل روايات صغيرة مشوقة. كنت أحيانا أسمعها بنصف ذهن. محاضرة تأخرت في تحضيرها. ورق أصححه. موعد هام. مشكلة في القسم وجدت نفسي طرفا فيها. لكنني كنت أفرح لكلامها. كنت أحب صوتها والطريقة التي تصف بها الناس. كانت تطلق أسماء خاصة على المدرسين. ميس حياة كان اسمها ميس معرفش ومستر جمال كان اسمه مستر لاب ومدام كارول اسمها مدام كورال.

دخل مستر لاب الفصل. البالطو بتاعه كان مكرمش على غير العادة. هاجر قالت لي بصوت واطي. شكله منامش كويس. أول مرة مستر لاب ميهتمش بالبالطو بتاعه. شوية وقال لنا كله يعمل لاين عشان هنروح اللاب نعمل تجربة هتيجي ف الامتحان. سابنا كتير في اللاين. كان بيطبع ورق. هاجر كررت كلامها مش قلت لك مش ف حالته الطبيعية. قعدت أفكر ايه السبب يا ترى. عمره ما كان ملبوخ ومش جاهز. كنا هنخرج م الفصل لما إجابة السؤال وصلت مع ست تخينة مكشرة دخلت الفصل وطلبت منه كراسة التحضير. اتكلمت معاه وهو سابنا واقفين عالباب. شوية وخرجت ومستر لاب وشه اتفرد شوية. هي دي البعبع بتاعه.

ياسمين جت المدرسة بسلسلة طويلة فيها امرالد خضرا كبيرة. قالت إنها هدية من ابن عمها اللي سافر البرازيل ورجع في إجازة شتوية. السلسلة غالية جدا. قالت إنه اشتراها من واحد ساحر بيقدر يخلي الحاجات تطير ف الهوا. خبت السلسلة واحنا في اللاين. في الفسحة خرجتها واحنا بنجري ونلعب. ميس كورال شافت السلسلة. وصممت تقلعها لها وخدتها على مكتب المديرة. ميس فاطمة مبتعرفش تقول لأ لميس كورال. النتيجة إن السلسلة اتصادرت. كلموا مامتها في البيت. مامتها قالت إنها اللي لبستها السلسلة ومكانتش تعرف إنه ممنوع. قبلوا الاعتذار وقالوا هيرجعوا السلسلة لياسمين في المرواح. ياسمين رجعت وهي مكشرة جدا. في بنات اتريقوا عليها. عشان تغيظهم طلعت صور على

الموبايل لابن عمها. كان طويل وشعره طويل زي البنات. لابس شورت طويل وشيرت كات. كان كبير اوي أكتر من عشرين سنة. البنات قعدوا يسألوها اسمه ايه وبيشتغل ايه.

أتذكر بعضا مما كانت تقصه. أتذكر الدفتر الوردي الذي كان يغلق بقفل على هيئة قلب. كانت تخط فيه سطورا وترسم فيه حيوانات وزهورا. لم أكن أتطفل عليه. كانت تريني أحيانا قصائد شعر أو قصصا قصيرة أو حتى جزءا من يومياتها. كتابتها كانت مركزة مختصرة لكن تستحق القراءة. لا أعرف مصير هذا الدفتر الآن. ربما خلفناه وراءنا في البيت القديم.

في الفراش ارتديت ما يخفف أحمال الجسد والقلب. كنت واقعة تحت تأثير الفيلم. السيدة العجوز وهي تمسك خطاب الحبيب بعد ستين عاما. ولا تملك ذاكرة تعيده إليها. لقد خلفت عمرا وراءها. لا جدوى منه على كرسي متحرك في حديقة بيت للعجزة. لا جدوى من معرفة أن الحبيب انتظرها ثلاث ساعات في محطة قطار. لا جدوى من معرفة أنه كان قد اشترى لها خاتم الخطوبة. لا جدوى من إطاعة الحب حين يولي زمنه.

الفراش نظيف. الفتاة السودانية النشيطة نظفت الغرفة كما يجب. هل لملمت بقايا العشق في كيس القمامة؟ عندما عدنا من الخارج كانت تقرأ في الشرفة. أعرتها كتابا كنت قد أحضرته لابنتي على أمل أن أخرجها من عزلتها. قابلتني بابتسامة صادقة. وعدتها بمقابلتها في القاهرة ومحاولة مساعدتها.

أدار لي ظهره واستغرق في النوم. لأول مرة لا أتنهد في راحة. لأول مرة أشعر بشيء غامض تجاهه.

طارق قال لي مرة "لماذا تنتظرين الحصول على البركة من أستاذتك؟"

"احترمهم. أثق في رأيهم."

"أنت تحكمين رسائل علمية. تقدري تقيمي بحثك بنفسك."

طارق كان يعريني كأكاديمية وربما كامرأة أيضا. رفض ورق بعثتي لأنني كنت ضعيفة وخائفة. أرتعد من برد العالم وأخاف الأصحاء. زوجي اشترى براءتي وحافظ عليها سنين طويلة. ثم انتزعها مني في ليلة واحدة. لم أكن قادرة على أن أصبح امرأة وحدي. وضعت يدا على ظهره. التصقت به. لم أنتظر كلمة مرور. عبرت إلى الضفة الأخرى وحدي.

الطقس كان جميلا في آخر يوم لنا على شاطئ البحر. قضيت ساعات مع دو ساد أحاول سبر أغواره. أردت فقط استخلاص منطقه عن الاغتصاب. الموضوع يزداد درامية في ذهني. رغم جزعي من أشواك ما يقول. أحاول تخيل الحياة بمنطقه. حياة تصبح فيها الجريمة هي القانون. بل لن تسمى جريمة وقتها. لهذا حرصوا على إخفائه لقرون عدة. أخذت اقتباسات عديدة ودونت ملاحظات كثيرة. لم يكن أحد حولي يجيد الفرنسية سوى ابني الحبيب. اهتم بتعلمها من أجلي. شيء آخر يضاف إلى جماله كإنسان. منة كانت تردد ورائي ما أعلمها إياه وهي طفلة. واكتسبت كلمات وعبارات يومية كثيرة في نيس. كانت جميلة جدا. كنت أحيطها بالخرز الأزرق وآية الكرسي. كنت فخورة بها. لم أكن أشعر أنني أستحقها. لم أكن جميلة كفاية بالنسبة لها. أم بالنسبة له؟

أعدت قراءة ما كتبت. "دو ساد كان يرى الاغتصاب فعلا غير مؤثم وغير مجرم لأنه مجرد ممارسة لغريزة طبيعية. فعل الإكراه فيها تلبية لقانون القوي يأكل الضعيف. أنت لا تحاكم السمك الكبير عندما يلتهم الصغير. ولا تشنق الأسد

الذي يلتهم الحمل. بالمثل لا يمكن، وفق دو ساد، محاسبة الرجل الذي يغتصب امرأة. فهي لم تجد فن الهرب أي لم تشحذ أدوات البقاء. اللوم على الغزال الذي لم يستعمل ما حبته به الطبيعة من خفة وسرعة في الحركة. اللوم على السمكة الصغيرة التي لم تجد التخفي والكاموفلاج. وبترك الأمور لهذه القاعدة البسيطة سيتحقق التوازن بشكل طبيعي. فستظل هناك غزلان وأسماك صغيرة بجانب الأسود والأسماك الكبيرة. كلفة المحاكم والشرطة أكبر ولا تحقق توازنا."

"رجل مرعب." قالت الفتاة السودانية. ماجي كانت في حدود الثامنة عشرة.

"بتعرفي فرنساوي؟"

"شوية. وأعرف الإنجليزية طبعا. كنت في مدرسة راهبات." حدثتني عن أسرتها ومدرستها. شعرت بألفة تجاهها.

"دو ساد ميعرفش حاجة عن الاغتصاب."

"قصدك ايه؟"

"ربما يكون قد عاشر امرأة او اثنتين رغما عنهما واعتقد أن هذا هو الاغتصاب. هو لا يعرف شيئا. هو كان ينظر لفلسفة الشهوانيين. هو كان يرى أيضا أن القتل ليس جريمة. لأنه لم ير قتلا." لم أكن راغبة كثيرا في الاستمرار في هذه المناقشة. هناك بعبع يختفي في آخرها. ماجي ابتسمت بطريقة طبيعية. "الاغتصاب قتل للإنسان وهو على قيد الحياة. الاغتصاب ليس للنساء فقط."

مر زوجي أمامنا. جميلا معطرا قويا. نظرة ماجي انكسرت. رأيت فيها الحرام. نهضت من مكاني. وضعت يدي على كتفه. همست له بأشياء. نعم هذا الجمال لي. هذا الرجل ملكي. طبعت على خده قبلة خفيفة كي أشمه باسمي أمام ماجي. الحرام اختفى من نظرتها وحل محله نظرة محايدة. هذا الذكر غير متاح. محجوز.

بيت نجوى ملون. كنبه وكراسيه منجدة بالمخمل والأورجانزا والتافتا وستائره الدرابيه تضفي جو قصور على المكان. الحيطان مزدانة بلوحات من ريف مصر ومصر القديمة وبعض جدران الغرف الأخرى عليها لوحات هندسية ملونة كذلك. نجوى لم تكن ذواقة للفن لكنها كانت تحب الجمال الباهظ الثمن. حتى الإضاءة ملونة بالأحمر والأرجواني والأزرق والأخضر. أما هي فكانت ترتدي ثوبا أبيض مكسور له ذيل قصير كفستان عروس. كانت رشيقة وجميلة. وجهها وشعرها يدلان على أنامل محترفة. كنت مبسوطة لأجلها. زوجها كان هناك. يبدو واقفا في ظلها. أخواته كن يتحركن بسرعة بين المدعوين والمدعوات. يحاولن السيطرة على ما يحدث. الموقف كان ساخرا.

منة وافقت على ارتداء تايور رمادي وتقصير الطرحة قليلا. بدأت تبدو كبني البشر رويدا رويدا. واقعة تحت تأثير والدها. هو صاحب الكلمة الأخيرة فيما ترتدي الآن. لماذا تركني أصارع معها سنين طويلة دون أن يتدخل؟ أدهم كان شبه صديق لابن نجوى. اندمج بسرعة مع مجموعات المراهقين والشباب. منة التزمت جانبي وتلحفت بالصمت كالعادة.

كان يرتب شيئا بدا أنه الدي جي. اقترب منا. وسيم يشبه توم كروز في شبابه. أجفلت منه. توم كروز كان فتى أحلامي. ابتسم تلك الابتسامة التي لا تعني شيئا. سأل عما نفضل من أغاني. حديثه إلى منة. أنا مجرد ممر إليها. يكبرها بزمن يكفي أن يمثل خطرا عليها. أتملك أدوات البقاء أم أن قتامة حياتها ستمنعها من الرؤية والمعرفة؟ أراد تعريف نفسه.

"مجدي. ابن عم أحمد ومحمد وميرنا."

مد يده إلي. تناولتها مبتسمة. مد يده إلى منة. ألصقت كفيها على جونلتها. كانت ترتعب من لمس أي أحد. متأكدة أنها تستغفر الآن في سرها.

اتسعت ابتسامتي "معلش يا مجدي. منة مبتسلمش. متاخدش الموضوع بشكل شخصي."

بدا على وجهه انزعاج ممتزج بالدهشة لكن دبلوماسيته غلبت فقال في تهذيب "أنا آسف لو كنت ضايقتها." كان يتحدث إليها عنها.

امسكت بيدها. "تعال نشوف الأغاني اللي بتقول عليها دي."

راندا حضرت بصحبة طارق. اتحاد الأقوياء. منطقي وطبيعي بل ومتوقع. شعرت بشيء داخلي يبكي. يبكي غبائي وضحالة فكري. يبكي بحثي عن واقع مواز لا وجود له ولا قدرة لي على خلقه. يبكي براءتي التي لم تكن تعرف عن الجنس إلا القدر الذي كان يمنحني إياه زوجي.

زوج نجوى كان يتكلم بحساب معنا. أعتقد أنه يعتبرنا من الحزب المعارض. مالت عليّ نجوى ونحن نصب كاسات العصير. "طلقها. الحفلة دي حفلة طلاقه. وندرت لأرقص فيها." ضحكت من أجلها. أكملت. "هيقدم العربية لأحمد بعد شوية. عايزة أشوف وش إخواته. ميعرفوش لسة إنه جاب له عربية. البت الش*** طلعت م المولد بلا حمص. خدت بس شوية هلاهيل كان اشتراها لها. هبقى أحكي لك بعدين."

تناولت قليلا من عصير التفاح بالصودا وقلت لها "عايزة أروح لعيادة التجميل معاكي مرة. تعرفي تحددي لي ميعاد استشارة؟"

راندا وطارق كانا يتناجيان. لابد وأنهما يرسمان شكل العالم في العشر سنوات القادمة. طارق لامني على عدم حضور عزاء العميد. هو العارف ونحن المريدين. هززت كتفي وقلت أرسلت له برقية عزاء واعتذرت بالسفر. راندا كانت مبهرة كالعادة. ارتدت شيئا له طابع فرعوني. مطرز برقي على الكتف. ووضعت حية ذهبية حول ذراعها. أسدلت شعرها ووضعت قرط جعران في أذنيها وكثيرا من الكحل حول عينيها. كانت المرأة التي أعتقد أنها كان يجب أن تكون أنا. أحب ما تفعل وما تقول. أعارضها علنا أحيانا لكنني لا أعارضها في قلبي أبدا. أحضرت هي وطارق هدية واحدة. ماك بوك للعام الجديد. "ألف مبروك يا أحمد. حاجة بسيطة ومفيدة برضه. جاهز للتشغيل." أضاف طارق. هدية واحدة من الكوبل المثالي.

مجدي كان يحوم حول منة. نظرت إليها وأنا واقفة قرب نجوى ووالدتها بينما ذهبت مترددة لإحضار شيء تشربه. كانت حلوة في كيس خيش. أميرة جار عليها الزمن. خفت عليها. إنها هشة بفعل سنين الحزن والعزلة. إنها لا تعرف ما هي لأنهم علموها أنها خطيئة يجب أن تُغتفر أولا. إنها تخاف الحياة قبل أن تمر من المطهر.

اتصل بي زوجي ليطمئن على منة. "زعلانة أنها مضطرة تسمع أغاني." وكأنه كان معنا. "خليها دايما جنبك."

قبل أن يغلق الهاتف قلت له "لا إله إلا الله."

رد بصوت متفائل "محمد رسول الله."